منهج الإسلام
في بناء الفرد والمجتمع

إعداد

الدكتور شرف الدين أحمد أدم

أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة جامعة الأزهر

من ٧٧٣ إلى ٩٠٠

منهج الإسلام في بناء الفرد والمجتمع

شرف الدين أحمد أدم
قسم الثقافة الإسلامية-كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني:sharafeldinhasan133@azhar.edu.eg

ملخص بحث :
الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ... وبعد :
فقد اشتمل هذا البحث على فصلين :
الفصل الأول: منهج الإسلام في بناء الفرد ، وقد اشتمل على عشرة مباحث.
الفصل الثاني: منهج الإسلام في بناء المجتمع، وقداشتمل على سبعة مباحث.
وقد تحدثت في الفصل الأول عن منهج الإسلام في بناء الفرد فبينت في المبحث الأول نظرة الإسلام للفرد، عندما خلق الإنسان لم يتركه يهيم في الأرض عبثًا، وإنما خلقه لحكمة جليلة، وغاية سامية هي: عبادته والالتزام بمنهجه. وفي الثاني عن توجيهات الإسلام لرعاية الفرد في جميع جوانب الحياة الإنسانية:في نظافة الإنسان ـ في غذائه وشرابه ـ وفي ملبسه. وفي الثالث تحدثت عن مكانة الإنسان في الحياة وأن الإنسان في نظر الإسلام مخلوق متميز، مفضل على سائر المخلوقات. وفي الرابع تحدثت عن استقلال شخصية الفرد في الإسلام التي تتميز بسمات معينة ومحددة. وفي الخامس تحدثت عن مسؤولية الفرد في الإسلام. وفي السادس تحدثت عن تمييز الإنسان بالعقل الذي هو مناط المسؤولية والتكليف.
ثم تحدثت في المبحث السابع عن منهج الإسلام في الحفاظ على صحة العقل. وفي الثامن تحدثت عن التفكير وأثره في تنمية شخصية الفرد.وفي التاسع تحدثت عن اهتمام الإسلام بالحرص على تحصيل العلم. وفي العاشر بينت أثر العبادات في بناء الشخصية.
وفي الفصل الثاني تحدثت عن منهج الإسلام في بناء المجتمع : فبينت أولا نظرة الإسلام لبناء المجتمع حيث ربط الإسلام بين أفراد المجتمع بما يجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا.وفي الثاني تحدثت عن علاقة الفرد بالمجتمع.
وفي الثالث تحدثت عن منهج الإسلام في غرس الشعور بقيمة المجتمع في نفوس الأفراد.
وفي الرابع تحدثت عن النظرة الإسلامية للعلاقات الإنسانية. وفي الخامس بينت أثر الإيمان في بناء المجتمع.
وفي السادس بينت كيف اهتم الإسلام بتكوين المجتمع القوى وذلك باهتمامه ببناء الأفراد على الإيمان والأخوة والإيجابية والمراقبة. ثم تحدثت في المبحث السابع عن تعميق الإسلام لشعور الأخوة بين أفراد المجتمع ، ثم تحدثت عن دعائم بناء المجتمع القوي ومنها : الكرامة الإنسانية: ـ العدل ـ المساواة ، ثم تحدثت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتكافل الاجتماعي وأثرهما في الحفاظ على المجتمع.

الكلمات المفتاحية : منهج – الإسلام – بناء – الفرد – المجتمع

Islamic approach to build the individual and society
Sharaf al-Din Ahmed Adam
Department of Islamic Culture-Faculty of Islamic Call in Cairo - Al-Azhar University
Email: sharafeldinhasan133@azhar.edu.eg

The summary of the research:
Praise be to God, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon the most honorable messengers ... And after:
This research included two chapters:
The first chapter: Islam's approach to building an individual and it includes ten topics.
Chapter Two: Islam's approach to building society and it includes seven topics.
In the first chapter I talked about the method of Islam in building an individual, so in the first topic showed the Islam's view for the individual, when the man was created he did not let him wander in vain. He created him for a great wisdom and for a supreme goal which is: worshiping him and adhere to his curriculum, while the second topic was about the directives of Islam to take care of the individual in all aspects of human's life: in human cleanliness - in human food and drink – in the human dress. In the third topic was about the place of man in life and Islam's view that the person is a distinct creature and he was favourable of all creatures. In the fourth was about the independence of the individual personality in Islam which is characterized by specific and specific features.In the fifth topic I talked about the responsibility of the individual in Islam. In the sixth topic I talked about distinguishing the man with a mind which is responsible for the tasks. Then in the seventh was about the method of Islam in maintaining the health of the mind. The eighth topic was about thinking and its effect on the development of the individual's personality and on the ninth he talked about the interest of Islam in ensuring knowledge acquisition. And in the tenth I showed the effect of acts of worship on character building. In the second chapter I talked about the method of Islam in building society: first I outlined Islam's view of building society where Islam linked the members of society with what makes them a strong building and in the second it talked about the relationship of the individual with society.
In the third I spoke about the method of Islam in instilling a sense of community value in the hearts of individuals. In the fourth I spoke about the Islamic view of human relations. In the fifth I showed the impact of faith in building society. In the sixth I showed how Islam cared about the formation of a strong society by its interest in building individuals based on faith, brotherhood, positivity, and monitoring. Then in the seventh topic I talked about Islam deepening the feeling of brotherhood among members of society, then she talked about the pillars of building a strong society including: human dignity: justice, equality, then talked about enjoining good and forbidding evil and social solidarity and their effect on preserving society.
Key words: Approach - Islam - building - the individual - society

المقدمــة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللَّه ﷺ وعلى صحبه ومن والاه

وبعد

فمن رحمة اللَّه تعالى بالإنسان أنه كرّمه وجعله خليفة في الأرض، وعرّفه كيف يتعامل مع نفسه ومع أسرته ومع مجتمعه، ورسم له المنهج القويم الذي من خلاله يتعامل مع هذا الكون الذي سخره اللَّه تعالى للإنسان، وبيّن له كيف تكون العلاقة مع خالقه، وما كان للفرد أن يتعرف على هذا المنهج القويم في بناء الفرد وفي بناء المجتمع إلا من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن خلال التطبيقات العملية التي عاشها المسلمون في ظل التوجيهات النبوية التي صنعت الإنسان المسؤول المُدرِك لرسالته في هذه الحياة الذي يستشعر قيمته ومكانته في المجتمع، لأن الفرد في المجتمع المسلم يتمتع بشخصية مستقلة مسؤولة، ومع استقلاله فإنه يستشعر واجباته الاجتماعية نحو مجتمعه الذي يعيش فيه، لأن المجتمع القوى هو نتاج لمجموع أفراده الذين يمتلكون المهارات المتنوعة والإمكانات المتعددة التي تسهم في بناء المجتمع المتقدم، ولذا فإن الإسلام يتميز بنظرته المتوازنة للفرد فيعمل على تربيته على الشعور بالمسؤولية، وتنمية عقله والحفاظ عليه، وقد عمل الإسلام على بيان دَوَر العبادات في بناء شخصية الفرد وعمل على تعميق الشعور بقيمة المجتمع في نفوس الأفراد، والشعور بالأخوة الإيمانية، بالإضافة إلى تعميق قيم التكافل الاجتماعية في الحياة الاجتماعية.

إنه نظرًا للواقع المتردي الذي يعيشه الفرد والمجتمع في عالمنا المعاصر في ظل تراجع القيم والمبادئ الأخلاقية وحالة الذوبان التي تعيشها بعض الشرائح

الاجتماعية . خاصة شريحة الشباب . في ظل وسائل التواصل الاجتماعي والفضاء الإلكتروني وغير ذلك من المنجالات التي أثّرت سلبًا على عقولهم كل ذلك وغيره يجعلنا بحاجة إلى الحديث عن منهج الإسلام في بناء الفرد والمجتمع لمعرفة السبيل الأساسي لاستعادة بناء الإنسان واستعادة بناء المجتمع كما أراده اللَّه، وفي تصوري أن تلك العملية لن تتحقق إلا باستحضار المنهج وتطبيقه بشكل تربوي واقعي يضمن تلك العملية، وإننا حينما ننشد ذلك لا ننشد شيئًا مستحيلًا لم يتحقق، كلا إنه تحقق وعاشه الفرد والمجتمع واقعًا حيًا في حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه ﷺ حيث كان الكل يتنافس على فعل الخيرات من خلال التعاون والتراحم والتكافل حتى استطاع المسلمون أن يجسدوا تعاليم الإسلام واقعًا حيًا يشعر فيه بذاته ويتفاعل بإيجابية مع مجتمعه.

إن هذا البحث جاء ليعالج موضوع «منهج الإسلام في بناء الفرد والمجتمع» من خلال ما يأتي:

الفصل الأول: منهج الإسلام في بناء الفرد

وفيه المباحث الآتية:

المبحث الأول: نظرة الإسلام للفرد.

المبحث الثاني: من توجيهات الإسلام لرعاية الفرد.

المبحث الثالث: مكانة الإنسان في الحياة.

المبحث الرابع: الإسلام واستقلال شخصية الفرد.

المبحث الخامس: مسؤولية الفرد في الإسلام.

المبحث السادس: تمييز الإنسان بالعقل.

المبحث السابع: منهج الإسلام في الحفاظ على صحة العقل.

المبحث الثامن: التفكير وأثره في تنمية شخصية الفرد.

المبحث التاسع: تحصيل العلم وأثره في بناء الشخصية.

المبحث العاشر: العبادات وأثرها في بناء الشخصية.

الفصل الثاني: منهج الإسلام في بناء المجتمع

وفيه المباحث الآتية:

المبحث الأول: نظرة الإسلام لبناء المجتمع.

المبحث الثاني: علاقة الفرد بالمجتمع.

المبحث الثالث: غرس الإسلام الشعور بقيمة المجتمع في نفوس الأفراد.

المبحث الرابع: النظرة الإسلامية للعلاقات الإنسانية.

المبحث الخامس: الإيمان وأثره في بناء المجتمع.

المبحث السادس: اهتمام الإسلام بتكوين المجتمع القوي.

المبحث السابع: تعميق الإسلام لشعور الأخوة بين أفراد المجتمع.

المبحث الثامن: من دعائم بناء المجتمع القوي.

المبحث التاسع: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأثره في الحفاظ على المجتمع.

المبحث العاشر: التكافل الاجتماعي وأثره في بناء المجتمع.

الخاتمة

الفصل الأول

منهج الإسلام في بناء الفرد

المبحث الأول

نظرة الإسلام للفرد

إن الفرد هو النواة الحقيقية للمجتمع وللأمة، وقد عمل الإسلام على تكوين الشخصية السويّة من خلال المنهج الإسلامي الذي يقوم على فهم الطبيعة الإنسانية، وبنائها البناء الذي يتناسب مع تلبية الاحتياجات المادية والروحية للإنسان، وبيان علاقته بخالقه وعلاقته بالناس وعلاقته بهذا الكون الذي خلقه الله وسخره للإنسان، لأن الله تعالى استخلفه في هذه الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ولذا فإن عملية تكوين الشخصية المسلمة وبناءها قد أولاها الإسلام أهمية خاصة، نظرًا للدور الذي يناط بهذا الإنسان، وطبيعة التحديات التي يتعرض لها في هذه الحياة، وتنوع المهام واختلافها باختلاف المكان والزمان والمسؤوليات التي تتحدد في ضوء ما يتمتع به الإنسان من مقومات حقيقية وواقعية، ولا شك في أن ما تعرضت له الشخصية المسلمة على مرّ تاريخها من تحديات أثّر سلبًا على مسيرتها في هذه الحياة، وقد تباين هذا التأثير، إلا أننا نراه ـ الآن ـ واقعًا لا تخطئه العين، ويتبدّى في كثير من المواقف على مستوى الأفراد والمجتمعات والأمة الإسلامية، حيث تعاني الشخصية المسلمة ـ في الغالب ـ في عصرنا الراهن من ضعف ظاهر، نتيجة عمليات الغزو الفكري والثقافي والتغريب الاجتماعي، خاصة في ظل العولمة الجامحة التي قامت بتجريف الكثير من القيم والمُثل في حياة نسبة غير قليلة من المسلمين، وما نراه من تردّي الأخلاق وضعفها وتراجعها، وضعف الهوية الإسلامية نتيجة ما أصاب الشخصية المسلمة من أمراض اجتماعية، أثّرت سلبًا على المجتمعات الإسلامية وعلى الأمة.

ونظرًا لأهمية الفرد وموقعه في المجتمع فإن الإسلام اهتم به اهتمامًا يتناسب مع مكانته ولذا فإن الله ـ تعالى ـ عندما خلق الإنسان لم يتركه يهيم في الأرض عبثًا، وإنما خلقه لحكمة جليلة، وغاية سامية هي: عبادته والالتزام بمنهجه، وتطبيقه على نفسه. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

وهذه المسؤولية العظيمة قد اختارها منذ البدء وسواء كان في اختياره هذا ظالمًا لنفسه أو جاهلًا بنوعية ما يتصدى له من مسؤولية فهذا ما كان. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

فالإسلام لم يخل أحدًا من المكلفين من المسؤولية، فهو يعتبر كل إنسان مسؤولًا مسؤولية كاملة عن نفسه وعما ينتج عنه من أفعال سواء كان بالنسبة إلى نفسه أو للآخرين، ويجنى ثمارها إن أحسن، ويلحقه عقابها إن أساء. يقول الرسول ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ»[1].

فالإنسان مسؤول عن أقواله. قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق:١٨] وعن كل ما يصدر عنه سواء بالنسبة لجوارحه ـ كما في

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: المرأة راعية، ١/٨٤/ح:٢١٤.

قولـــه تعـــالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

أم بالنسبة لعقله أو قلبه أو حاله. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[١].

إنه نظرًا للموقع الذي يتبوأه الإنسان في هذه الحياة، فهو خليفة الله في الأرض، ويتحمل الأمانة العظيمة وتلك المسؤوليات الجِسام، ولذا فإن الإسلام اهتم اهتمامًا كبيرًا بتكوين شخصيته وإعداده الإعداد الذي يتناسب مع الأدوار المنوطة به في هذه الحياة، إن الله ـ تعالى ـ قد أعد الإنسان إعدادًا خاصًا وزوَّده بالقوى الجسدية، والإدراك العقلي، والطاقة الروحية، بحيث يكون قادرًا على تحمل المسؤولية وأداء رسالته في الحياة، ثم هو بعد ذلك: يحيطه بالضمانات الضرورية التي تدعوه إلى القيام بمسؤوليته على أحسن وجه وأكمله ليكون في النهاية إنسانًا كاملًا جديرًا بحمل الأمانة التي أنيطت به في هذه الحياة[٢].

مسؤولية الإنسان في نظر الإسلام:

إن الإنسان من أفضل مخلوقات اللَّه تعالى، ولذا فهو صاحب مسؤوليات متعددة:

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: صفة القيامة، ٤/٦١٢/ح:٢٤١٧.

(٢) انظر: المسؤولية في الإسلام، محمد زكي الدين حجازي، ص١٢، ٣٠.

ـ الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبد الله التركي، ص٣٤٢، ٣٤٣.

١. إنه مسؤول في هذه الحياة الدنيا أمام أهله ومجتمعه، وقد نظم الإسلام هذه المسؤولية تنظيمًا دقيقًا، فألزمه بعدة تكاليف نحو نفسه وأسرته ومن له علاقة بهم من أفراد المجتمع، وجعل إخلاله بإحدى المسؤوليات سيئة ينال جزاءها سواء كانت عقوبة أو ضمانات مدنية، يتحملها في هذه الدنيا، نرى ذلك من خلال أحكام العقوبات في الإسلام من حدود وتعزيز، وأحكام الضمان المدني في المعاملات، وأحكام النفقة في نظام الأسرة وغير ذلك من الأحكام التي تناولها التشريع الإسلامي.

وبناءً على فهم المسلم لمعنى الخلافة والعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدرك أنه مسؤول وذلك تطبيقًا لمعنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢. إنه مسؤول بعد ذلك أمام الله ﷻ بعد انتقاله إلى الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦. ٨].

وهذه المسؤولية متممة لتلك المسؤولية الأولى، فالإسلام لم يقف عند حدود المسؤولية الأولى ونتائجها، بل انتقل إلى نوع آخر من المسؤولية، هي أبعد مدى وأدق حكمًا وأعمق أثرًا في نفس الإنسان، ذلك: أنه مسؤول مسؤولية نهائية تتعلق بمصيره الأبدي، وأن من يحكم عليه ليس المجتمع بهيئاته وأجهزته، وإنما: هو خالقه وخالق الكون الذي لا يخفاه دبيب النملة السوداء

في الليلة الظلماء، فأعماله محصاة ومسجلة عليه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وهذا الإقرار للمسؤوليتين مما يتميز به الإسلام عن المذاهب الأخرى سواء كانت دينية أو وضعية[١].

إن الإسلام أشعر الإنسان بمسؤوليته عن جميع أعماله قال تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

إن هذا التوجيه القرآني يعمل على تربية الإنسان على الشعور بالمسؤولية الفردية ولا شك أن هذا الشعور يولد لدي الفرد إحساسًا كبيرًا بأنه سيحاسب على الصغير والكبير والنقير والفتيل، فيؤدى ذلك إلى إيجاد الإنسان المسؤول المتزن في سلوكياته وفي تعاملاته مع الآخرين.

---

(١) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبد الله التركي، ٣٤١ - ٣٤٥.

المبحث الثاني

من توجيهات الإسلام لرعاية الفرد

إن الإسلام نظر إلى الإنسان من ناحيتين: الناحية المادية والناحية الروحية، فعمل على تنميته وتعليمه وتربيته من خلال المنهج الإسلامي الذي ركز عليه ماديًا وروحيًّا، ولم ينكر عليه مطالبه المادية بل عمل على تلبيتها بالسبل المشروعة التي تتسق ومكانة الإنسان.

إن الإسلام في توجيهه للإنسان قام على رعاية طبيعته: فهو يعترف بأنها طبيعة الإنسان ويعمل على أن تبقى طبيعة إنسان، ولا يحاول أن ينقل الإنسان من طبيعته إلى طبيعة أخرى كما يحول دون أن تتحول إلى طبيعة حيوان...، الإنسان في نظر الإسلام بشر، ويبلغ بالإسلام أعلى درجة البشرية.

لهذا كان الإسلام نظامًا لحياة الإنسان الذي لا يستطيع أن يبلغ مبلغ الألوهية، حتى لو كان رسولًا مصطفى من ربه:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣].

ونظامًا لحياة الإنسان الذي لا ينبغي أن ينحط عن طبيعته التي يتميز بها عن غيره.

وهنا نرى الإسلام يتدخل (بتوجيهه في جميع جوانب الحياة الإنسانية)، يتدخل بتوجيهه:

(أ) في نظافة الإنسان: فيحمله على غسل بعض أعضاء جسمه عدة مرات في اليوم، وعلى غسل جميع جسمه في مناسبات خاصة، ويحثه على أن يحتفظ بنظافة ثوبه وبدنه وفمه عند الاجتماع واللقاء، على نحو ما يحدث في صلاة الجمعة.

(ب) في غذاء الإنسان وشرابه: فيحرِّم عليه بعض ألوان الطعام، كما يحرِّم عليه بعض أنواع الشراب:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣].

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

ينصح الإنسان عندما يبتغي أن يتناول طعامًا أو شرابًا ألا يتناوله إلا إذا شعر بالحاجة إليه، وبالمقدار الذي يسد به حاجته:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

(ج) في ملبس الإنسان: فيحرِّم على الرجل لبس الحرير وأن يختتم بالذهب، ويحرِّم على المرأة أن تثير الفتنة في ملبسها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

(د) كما يأمر الإسلام الإنسان أن يتمتع بالزينة المباحة المناسبة قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ...﴾ [الأعراف:٣١، ٣٢]، فالإنسان مطالب بالتمتع بطيبات الحياة وعدم الإسراف في ذلك؛ لأن الله خلق الإنسان وهو أعلم بمكنونات نفسه ورغباتها، ولذا فإن الإسلام يُحِّرم عليه ما يثير أعصابه أو يتلفها، كالقمار في صوره المختلفة:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

بينما ينصحه بما ينشط بدنه عقله ويزيل عنه السآمة والملل، كمباشرة الرمي والعدْو، فقد مَرَّ رسول اللَّه ﷺ على قوم يرمون بالسهام فقال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»[1]. وكان ﷺ يسابق السيدة عائشة رضي الله عنها فيسبقها مرة وتسبقه أخرى.

وفي معاملة الإنسان للإنسان: فإن كان الإنسان أبًا أو أمًا نصحه بعدم الافتتان بالولد:

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌۚ﴾ [التغابن:١٥].

وإن كان ابنًا نصحه برعاية علاقته بأبيه وأمه رعاية تقوم على الوفاء وعلى المحافظة على الشعور الكريم نحوهما، وتجنب ما يؤذي نفسيهما من قرب أو بعد:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٣، ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: التحريض على الرمي، ٤/٣٨/ح:٢٨٩٩.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(١).

عَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(٢).

وإن كان زوجًا، نصحه بالإحسان في المعاشرة وفي المفارقة على السواء:

﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[البقرة:٢٢٩].

وإن كانت زوجةً نصحها بأن تؤدي ما يجب لها:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٢٨].

وإن كان ذا جوار نصحه بمشاركة جاره في سرائه وضرائه، وعلى الأقل بأن يؤمنه من أذاه: عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» (شروره وأذاه)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة، ٨/٢/ح:٥٩٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، ٤/١٩٧٤/ح:٢٥٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾، ٨/٢/ح:٥٩٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره، ٨/١٠/ح:٦٠١٦.

وعنه ﷺ: «مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[١]، وربط بين الإيمان والأخلاق، وحذر من سوء معاملة الجيران وذلك للحفاظ على قوة اللحمة والنسيج الاجتماعي للمجتمع، فقال ﷺ: «وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ»[٢].

وإن كان راعيًا حمَّله مسؤولية الرعاية والقيادة[٣]: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٤].

إن كل فرد مطالب بمعرفة اللَّه وعبادته، لأن اللَّه تعالى بعث الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل، والإنسان مطالب بالتفاعل الإيجابي مع مجتمعه ومشاركته والتعاون مع بقية أفراده لأجل الإسهام في البناء الاجتماعي، ولذا فإن الإسلام يرفض العزلة والمقاطعة الاجتماعية، وإن النبي ﷺ ذكر في الحديث: «الْمُسْلِمُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ أَوْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[٥].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا فُلَانُ أَرَاكَ كَئِيبًا حَزِينًا، قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِفُلَانٍ عَلَيَّ حَقٌّ، لَا وَحُرْمَةِ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند أبي هريرة ﷺ، ١٥/٤٦٥/ح:٩٧٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوايقه، ٨/١٠/ح:٦٠١٦.

(٣) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ٢/٤ . ٩.

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الخلافة، باب: كلكم راع ومسؤول، ٥/٢٠٧/٩٠٤٦.

(٥) ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده، ٣/٣٩٩/ح:١٩٨٨.

مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفَلَا أُكَلِّمُهُ فِيكَ، قَالَ: إِنْ أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَانْتَقَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَنَسِيتُ مَا كُنْتَ فِيهِ قَالَ: لَا وَلَكِنِّي سَمِعْتُ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ ﷺ وَالْعَهْدُ بِهِ قَرِيبٌ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا مِنِ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلَاثَ خَنَادِقَ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ»[1].

ولأجل تعميم المنفعة فإن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا، أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[2].

وإن كان ذا عهد أمره بالوفاء بالعهد:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾

[النحل: ٩١].

وإن كان ذا تجارة أمره بالقسطاس المستقيم وبالعدل في المبادلة:

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ﴾[الإسراء: ٣٥].

وإن كان ذا شهادة أو قضاء أمره بالعدل مهما كانت الدوافع والظروف...

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾[الأنعام: ١٥٢].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ﴾[المائدة: ٨].

(و) في عبادة الإنسان لله: فيوجهه إلى أن المعبود إله واحد لا شريك له:

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٥/٤٣٥/ح: ٣٦٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند أنس بن مالك ﷺ، ١٩/٤٧٩/ح: ١٢٤٩٥.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾[الزمر:١٤].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[الأنعام:١٠٢، ١٠٣].

إن الإسلام يتدخل بالتوجيه في حياة الإنسان الخاصة والعامة، ينهاه عن هذا ويأمره بذاك، يتدخل في أمر نظافته وفي غذائه وشرابه وفي ملبسه وفي وسائل تسليته، وفي معاملته لغيره، وفي عبادته لربه وحياة الإنسان أينما كان وفي أي مكان وجد، هي تلك الحياة ذات الألوان العديدة: فلماذا كانت عناية الإسلام بالإنسان إلى هذا الحد؟[1].

إن فلسفة الإسلام في العناية بتكوين وبناء شخصية الفرد المسلم الذي رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا تقوم على اعتبار أن الإنسان هو النواة الأساسية في البناء الاجتماعي للمجتمع المسلم والأمة الإسلامية، ولا بد من التركيز على بناء شخصيته في جميع جوانبها وتوجيهه التوجيه الصحيح حتى يتسنى له القيام بالتبعات الملقاة على عاتقه.

«ولكن لماذا اهتم الإسلام بالإنسان؟... لماذا لم يدَعه الإسلام مثلًا يفعل ما يريد في خاصة نفسه: في شأن نظافته وغذائه وكسائه، وما يتسلى به؟ أهناك ضرر عليه وحده أو على غيره معه لو تركه بدون توجيه حياته الخاصة؟).

(كل هذه أسئلة يجاب عنها، لو تبين أن توجيه الإسلام كان ضرورة للإنسان وفق طبيعته الخاصة).

([1]) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ٢/١١.٩.

(الإنسان يشتهي)، وأُعِد في الوقت نفسه لأن يكون ذا قيادة يقود بها ذاته، ويقود بها ما عداه من الكائنات الأخرى... الإنسان طبيعته لها دوافع الأنانية، ومع ذلك لها ميل إلى الاجتماع.

(الإنسان يشتهي)، وما يشتهيه لبطنه وفرجه... والإنسان ذو قيادة، ومركز قيادته في عقله وهو سره وسبب تميزه... فلو استرسل الإنسان في طلب ما يشتهيه لعاش لبطنه وفرجه، وأخضع ما له من ميزة القيادة لتحقيق شهوة البطن والفرج؛ وعندئذ يصبح إنسانًا يشتهي فقط أن يملأ بطنه ويلبي رغبة الفرج... لا يتخير ما يملأ به بطنه ولا ما يلبي به رغبة فرجه. وإنسان يندفع ولا يختار يجني على نفسه أولًا؛ لأنه فقد خاصة الاختيار بين الضار والنافع، بل لأنه لا يستطيع أن يقف عند حد... يسلك مندفعًا كل طريق معوج أو مستقيم، ويستخدم مضطرًا كل وسيلة ضارة أو نافعة... لا يعرف خطًا معينًا لسيره، ولا يسأل عن صالح وغير صالح فيما يتناوله من أكل وشرب، ولا عن ضار وغير ضار فيمن يتصل به اتصالًا جنسيًا... يرى الهلاك فيما يذهب إليه وليست لديه مقاومة ... يرى في نوع معين من الأكل والشراب حسب إحساسه الباطني وتجربته الشخصية.

والنتيجة التي تترتب على ترك الإنسان من غير توجيه، ومن غير تدخل، في رسم خطوط السير لحياته الخاصة والعامة . هي فقدان الإرادة والشخصية الإنسانية... فقدان المقاومة والمغالبة، فقدان التمييز والاختيار، ثم الخصومة والاحتكاك والاعتداء المستمر.

لقد كانت رسالة الإسلام تخطيطًا للطريق الذي يوصل الإنسان إلى أن يكون ذا إرادة وذا قوة واستطاعة للمقاومة والمغالبة، وذا مشاركة اجتماعية. كانت رسالة الإسلام لإيقاظ الوعي بالذات، والوعي بالمجتمع معًا، إذ إضرار البشرية هي في فقدان إرادة الأفراد، وانعدام المشاركة الاجتماعية بينهم.

والإسلام إذن جاء لاتقاء هذه الأضرار البشرية واتقاؤها في تنمية إرادات الأفراد وتأكيد روابط المجتمع بينهم... وهو بذلك رسالة توجيه ذي شقين: للفرد والمجتمع[١].

المبحث الثالث

مكانة الإنسان في الحياة

«إن الإنسان في نظر الإسلام مخلوق متميز، خلقه اللَّه من تراب، ونفخ فيه من روحه. قال تعالى: ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[السجدة:٧-٩].

وبناءً على تميزه هذا: ينظر الإسلام إليه على أنه كائن مكلف وحياته كلها ابتلاء واختبار قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢].

وهو خليفة اللَّه في أرضه، وبذلك يحس بمكانته في هذا الوجود، وبمركزه القيادي، وبكرامته في هذا الكون. يقول ابن القيم: «فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اخْتَصَّ نَوْعَ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ بِأَنْ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ، وَشَرَّفَهُ، وَخَلَقَهُ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ، وَخَصَّهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَقُرْبِهِ وَإِكْرَامِهِ بِمَا لَمْ يُعْطِهِ غَيْرَهُ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ وَمَا بَيْنَهُمَا، حَتَّى مَلَائِكَتَهُ ـ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ قُرْبِهِ ـ اسْتَخْدَمَهُمْ لَهُ»[٢].

وهذه الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية ليست كرامة مفردة، ولكنها كرامة ذات شعب ثلاث:

---

(١) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ٢/١٢.١٣.

(٢) مدارج السالكين (١/٢١٠)، مطبعة السنة المحمدية (١٣٧٥هـ).

. كرامة: هي عصمة وحماية، يستغلها من طبيعته كإنسان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠].

. وكرامة: هي عزة وسيادة، تتغذى من عقيدته، قال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون:٨].

ـ وكرامة: هي استحقاق وجدارة يستوجبها بعمله وسيرته[1]، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢]. وهذه الكرامة تجعل الإنسان يحس بشخصيته وبقيمته في هذا الوجود، لأنه يعتز بانتسابه إلى اللَّه ﷻ، مما يجعله يعيش عزيز النفس يأبى الذل والهوان، بعيدًا عن الشعور بالتفاهة والضياع والفراغ، وهذا الإحساس ليس أمرًا سهلًا ولكنه شيء عظيم يتجلى لنا حين ننظر إلى العالم الغربي حيث النظرة المادية، فالإنسان عندهم: لا يزيد عن أنه مجرد حيوان، من فصيلة راقية ليس له جذور سابقة، وليس له امتداد لاحق بعد الموت، مما جعله يعيش حالة ضياع وفراغ وشعور بالتفاهة والحقارة.

وما أعظم الفرق بين شخصين: يعيش أحدهما وهو يشعر أنه مجرد حيوان راق، ينتهي بمجرد الموت، وآخر: يعيش وهو يشعر أنه خليفة اللَّه في أرضه، وهذا الشعور هو من الأمور المهمة التي يخالف فيها الإسلام التفكير المادي

---

(1) انظر: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د/ محمد دراز، ص٣٣، دار القلم، الكويت ١٤٠٠هـ.

في النظرة إلى الإنسان، فالإسلام ينظر إليه على أنه ليس بالكيان المادي المحض[١].

هذا الشعور الإنساني الذي يترسخ في نفس الفرد المسلم يجعله يشعر بدوره في الحياة، ولعل ذلك يُفسر لنا روح التضحية التي تكونت في نفوس الصحابة رضي الله عنهم وجعلتهم ينتشرون في الأرض، يحملون مبادئ هذا الدين وسماحته، حتى أصبحوا قدوة للناس، مما أثار فضول غير المسلمين ليسألوا عن مبادئ هذا الدين الذي ربَّى معتنقيه على هذه الروح، إن هذه المكانة التي تبوأها الإنسان جعلته يعمل على الاستفادة من كل معطيات الكون، حتى استطاع المسلمون أن يبنوا أعظم حضارة عرفتها الإنسانية، وذلك يوم أن كان الفرد المسلم يعرف مكانته وقيمته في هذه الحياة.

إن الوظيفة الكبرى للروح هي الاتصال بالله في كل لحظة، ولكن رحمة اللَّه واسعة لا يريد البشر على المستحيل، وهو يعلم أن إطلاق الطاقة الروحية الدائمة الكاملة بالنسبة إلى البشر مستحيلة، فقبضة الطين ثقيلة، ودفعة الشهوة لها قوة، والمادة لها ضغطات ثقيلة.

فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ ﷺ، قَالَ: ... فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً

---

(١) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبد اللَّه التركي، ص٩٥، ٩٦.

وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[١].. وفي هذا إشارة إلى أن التقرب إلى اللَّه والصلة الدائمة به تحدث في الإنسان حالة من الصفاء والشفافية وتحرر طاقته الروحية من القيود البدنية والمادية.

لكن، من أين يبدأ الإنسان بإصلاح نفسه؟

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا، وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[٢].

ويفيد هذا الحديث أن إصلاح الإنسان يبدأ بإصلاح النفس من داخلها، وهو القلب، وذلك عن طريق الاتصال بالله والتقرب إليه، فإذا صلح قلب الإنسان وامتلأ بالإيمان بربه صلح الإنسان، واستقام سلوكه، وحسن خلقه، واصبح إنسانًا سويًا متكامل الشخصية.

من هنا نفهم أن الصحة النفسية تعتمد أساسًا على الالتزام بفطرة اللَّه تعالى التي فطر الناس عليها، وهي عقيدة التوحيد، والاتصال الدائم بالله، واتباع المنهج الذي وضعه للإنسان في الحياة.

فما دام قلب الإنسان على الفطرة السليمة المكملة بالشريعة المنزلة يكون الإنسان سويًا متمتعًا بالصحة النفسية. فعَنْ حُذَيْفَةُ بن اليمان ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، ٤/٢٠١٦/ح: ٢٧٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ١/٣٠/ح: ٥٢.

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا[١] لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[٢].

فالإنسان السوي المتمتع بالصحة النفسية هو الإنسان ذو القلب السليم الذي لم تؤثر فيه الفتن، أمّا الإنسان المريض نفسيًّا فهو ذو القلب الذي أثرت فيه الفتن ومالت به عن الفطرة السليمة.

إن الاتصال بالله سبحانه يؤدي إلى الاستقامة في السلوك، وفيه وقاية وعلاج من الانحراف والمرض النفسي. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٣].

«وهكذا فالاتصال بالله، بأداء الواجبات، يجعل الإنسان يفوز بحبه ورضاه سبحانه، وإذا أحب اللَّه تعالى عبدًا أحاطه بعنايته ورعايته وكان عونًا له في جميع أموره. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا

---

(١) أي: متراكمًا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين، ١/١٢٨/ح:١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم والغصب، باب: النهبى بغير إذن صاحبه، ٣/١٣٦/ح:٢٤٧٥.

تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[١].

إذا كان الأمر كذلك، فإن العبد لا يخشى إلا اللَّه وحده، ولا يسأل إلا اللَّه وحده، كما يتضح من توجيهات الرسول ﷺ لابن عباس ؓ، حيث قال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[٢].

فالمنهج الإسلامي منهج عمل وعبادة، حيث يجعل الإسلام هذه العبادة هي القاعدة الكبرى، التي يستمد منها نظام الحياة كله، وكل عمل يقوم به الإنسان ويخلص فيه ويبتغي وجه اللَّه فهو عبادة.

إن الإسلام يربي الفرد على أن تكون صلته بالله، وتعامله مع اللَّه، وخشيته من اللَّه، وحبه لله، ورجوعه إلى منهج اللَّه، لأن ذلك هو أصل الخير كله[٣].

يشير إلى ذلك حديث صهيب بن سنان الرومي النمري ؓ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، ٨/١٠٥/ح:٦٥٠٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/٦٦٧/ح:٢٥١٦، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، محمود بن عمر، ١/٥٧٠، ط١، دار الفكر، ١٩٧٧م، سورة النساء، الآية: ١٣٣.١٣٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، ٤/٢٢٩٥/ح:٢٩٩٩.

هذه هي العبادة في مفهوم الإسلام؛ وهذه هي عملية اتصال الروح بالخالق، وهو محور العقيدة الإسلامية كلها ومحور منهجها التربوي كله، ومنه تتفرع التشريعات كلها»[١].

وكل أعمال الإنسان التي يخلص فيها لله تعالى عبادة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢].

إن الإسلام سلك منهجًا قويمًا في بناء الفرد سواء فيما يتعلق بجسده ومتطلباته والأمور التي تحافظ على حياة الإنسان، أم فيما يتعلق بالجوانب الروحية، لأنه مكون من شقين: مادي، ورحي، وقد حرص الإسلام على عملية الموائمة في تنمية هذين الجانبيين بما يتسق مع الطبيعة الإنسانية ليستطيع الإنسان أن ينهض برسالته سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى المجتمعي أو الوطني، لأن الإنسان في نظر الإسلام لم يُخلقْ ليعيش لنفسه أو لأسرته، بل خلق ليؤدي دوره في هذه الحياة من خلال شعوره بمسؤولياته نحو مجتمعه وأمته بعيدًا عن الأنانية والأثرة، ويدرك أن المجتمعات والأوطان والأمم لا تتقدم إلا بعطاء أبنائها الذين يدركون معاني الإنتماء المجتمعي والوطني، ولا شك أن هذا الانتماء لا يتعارض مع الإنتماء للدين، لأنه لولا الأوطان والأمن والاستقرار فيها والتفاني في العطاء في المجالات المختلفة والسعي في إعمارها وبنائها، لما شعر الناس بالاستقرار والأمان، ولما استطاعوا أن يمارسوا حياتهم في المجالات المختلفة، ولا شك أن منهج الإسلام يعمل على إعداد الإنسان النافع الذي يفهم الحياة المبنية على التعاون والتكافل، وأنه لا سبيل لنهضة المجتمعات والأوطان إلا من خلال العمل المثمر البناء الذي يُترجم الروح الإيمانية الموجودة داخل الفرد المؤمن.

---

(١) حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، يسرى محمد أرشد، ص١٠٥. ١٠٨.

المبحث الرابع

الإسلام واستقلال شخصية الفرد

إن من أبرز ما تميز به المنهج الإسلامي في بنائه للفرد حرصه على بناء شخصيته المستقلة التي تتميز بسمات معينة ومحددة، فالإنسان لا يخضع إلا لله ولا يعمل إلا لله، ولا يخشى إلا الله، فهو سبحانه بيده مقاليد السماوات والأرض، يدبر الأمور، مما يجعل الإنسان على يقين بأن ما قدره الله سوف يكون، ومن ثم فإن الفرد المؤمن يعمل لمرضاة الله، من خلال هذا الضمير الحي الذي يربيه الإسلام، وقد قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[1].

كل هذه المعاني الإيمانية تعمل على تقوية الشخصية وتعزيز استقلالها، «إن مقومات شخصية الفرد هي معالم إنسانيته التي تتميز بالحرية والإرادة، فيما يعتقده وفيما يحكم به، وفيما يسلك. واستقلال شخصية الإنسان هنا هو: محافظته على ألا يتأثر في ذلك بغير خصائص إنسانية. لا يتأثر في قضائه وشهادته وقوله بعلاقته بمن يقضى لهم، لأن علاقة الإنسان بغيره أمر أجنبي عن خصائص إنسانيته. ولا يتأثر في سلوكه بعمل غيره بل يترسم معاني الإنسانية في هذا السلوك، غاضًا النظر عن تصرف غيره.

---

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: نفسه، ٤/٦٦٧/ح:٢٥١٦.

فإذا تجلت مقومات شخصية الفرد في التفكير والاعتقاد، وفي الحكم والفصل، وفي السلوك والتصرف . فاستقلاله في شخصيته هو دفعه العوامل بعيدة عن المعاني الإنسانية، وعدم تأثر بها فيما يرى ويعتقد وفيما يحكم ويصل.

والإسلام يدفع الإنسان إلى أن يكون ذا استقلال في شخصيته: يحمله على أن يكون محافظًا على بشريته، يدفعه إلى عدم قبول أي اعتداء على خصائص الإنسانية فيه، يدعوه إلى أن يرفض تأثره بغيره، ويرفض تأثره بالعادات التي كانت تعوقه، وأن يخلى بين نفسه وبينها فيما يعتقد ويؤمن به، وفيما يقضى وينطق به، وفيما يسلك ويتصرف فيه:

١ـ يقول اللَّه تعالى في وصف فريق رفض أن يؤمن بالإسلام تحت التأثر بالإلف والعادة فيما كان لقومه من عقيدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].. فقد لام القرآن الكريم هذا الفريق على موقفه من دعوة الإسلام لأنه لم يرفضها إلا لأنه نشأ على إلف وتمسك به، ولم يخل بين نفسه وبين إلفه عن عقائد الماضي في تفهم هذه الدعوة، أي لم يدع نفسه حرًا ولم يحافظ هنا على استقلال شخصيته في خصائصها ومقوماتها الإنسانية، بل ترك خصيصته الإنسانية يعتدى عليها ولم يرد عنها اعتداء العادة والإلف. إذ المعتدى هنا هو ما كان عليه الآباء من عقيدة تمتهن بشرية الإنسان الذي يعتقد بها ويساير رسومها»[١].

ولذا حذّر النبي ﷺ من ذوبان الشخصية واهتزازها وانصايعها للغير، وعدم وجود أيِّ نوع من الإرادة أو المقاومة لمحاولات الاستقطاب، فعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا،

---

(١) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص١٦١.

وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»[١].

٢ـ لقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يتوخوا العدل في القول والعمل وعدم المجاملة لأي اعتبارات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢] «فطلب من المؤمن أن يكون عدلًا فيما يقول. وما يقول قد يكون شهادة يؤديها وقد يكون فصلًا في خصومه ينطق به، وقد يكون رواية يرويها وحديثًا ينقله. وطلب إليه أن يلتزم هذا العدل ولو كان قوله الذي يقوله متعلقًا بذي قرابة وبذي صلة خاصة من شأنها أن تؤثر عليه وتجعله يميل إليه.

ومعنى طلب العدل في القول هنا والتزامه في جميع الحالات هو الدعوة إلى أن يحافظ الفرد على استقلال شخصيته في مجال الحكم من العوامل التي من شأنها أن تؤثر ولا دخل لها في خصائص بشريته، معناه الدعوة إلى أن يحول الفرد بين نفسه وبين أن يعتدى على مقومات شخصيته. معناه أن يحول الإنسان هنا بين نفسه كإنسان له خصائص البشرية وبين هواه وميله الذي هو خارج عن هذه الخصائص»[٢].

لقد أمر اللَّه تعالى بالعدل والإنصاف حتى مع من تربطنا بهم الوشائج والعواطف، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ...﴾ [النساء:١٣٥] أي اشهدوا لله

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في الإحسان والعفو، ٣/٣٦٤،ح:٢٠٠٧، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه».

(٢) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص١٦٢.

بالحق وإن كان الحق على نفس الشاهد أو على والديه أو أقاربه، ولا تجاملوا ولا تحابوا أحدًا لأي سبب من الأسباب وهذا تأكيد على أهمية العدل واستقلال الشخصية، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ...﴾ [المائدة:٨]، وهذا تأكيد على أهمية تحرى العدل حتى مع الخصوم والأعداء، أي لا تحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم ﴿ٱعْدِلُواْ﴾ هذا ما يليق بالمؤمنين.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يكون إنسانًا، ويبقي إنسانًا، ولا يكون كذلك إلا إذا بدت إنسانيته في مظاهرها الواضحة. ومظاهر الإنسانية الخالصة في الاعتقاد الصحيح والحكم والعدل والسلوك المستقيم. فإذا ضل في اعتقاده أو مال في حكمه أو انحرف في سلوكه . فقد تأثر فيما ضل وفيما مال وفيما انحرف بعوامل أخرى بعيدًا عن إنسانيته. ولذا كانت محافظة الإنسان على استقلال شخصيته جزءًا رئيسًا في رسالة الإسلام. والعبادات التي فرضها اللَّه عليه من شأن أدائه إياها وقيامه بها أن تنحى عنه عوامل الهوى وتنمي فيه الإرادة وتقوى شخصيته. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم تدريب نفسي لقوة الشخصية.

الإسلام يحافظ على قوة الشخصية. إذ الفرد السليم وهو الذي صار إنسانًا في تطوره وبقي إنسانًا في حياته . هو الوحدة القوية في بناء الأمة، وهو الوحدة التي تستطيع أن تبعد عن الشرور، وتعمل من أجل الخير. إذ الشرر ليست إلا الانحرافات عن خصائص الإنسانية الخالصة.

شخصية الفرد في مقومات إنسانيته، واستقلال هذه الشخصية في المحافظة على هذه المقومات. استقلالها في أن تدفع عوامل الانحراف. ودائمًا انحراف

الإنسان يكون بما وراء إنسانيته، يكون بهواه. والهوى هو الذي يكون العقيدة الباطلة والرأي الفاسد، والسلوك العابث. والإسلام إذ يطلب استقلال شخصية الفرد يطلب إبعاد الهوى الذي هو مصدر كل شر وعبث[1].

---

(1) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص١٦٣.

المبحث الخامس

مسؤولية الفرد في الإسلام

«إن الطابع الشخصي للمسؤولية الإنسانية يبرزه قول اللَّه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ (أي أن حظ كل إنسان من الخير والشر، ومن العمل الحسن والعمل القبيح. ملازم ومصاحب له: ومطوق به عنقه، لا ينفك عنه بحال. وطائر الإنسان، هو حظه. وجاء استعمال القرآن به، جريًا على قول العرب: جرى لفلان الطائر بكذا:... وبكذا، من الخير والشر، تفاؤلًا أو تشاؤمًا) ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ (أي مسجلًا مفتوحًا): ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ (أي لا تحمل نفس خاطئة): ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (أي خطيئة نفس أخرى): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٣.١٥] (أي لا نجازى أحدًا بالعذاب على خطيئته وكفره إلا بعد أن نقيم الحجة عليها بإرسال الرسول المصطفى وبإبلاغ رسالته على الناس عامة).

يتميز الإسلام بنظرته الخاصة للإنسان فهو مسؤول عن عمله الذي يقوم به، تلك هي نظرة الرسالة الإلهية منذ أن أتى بها رسول من قبل اللَّه جل شأنه... حتى محمد بن عبد اللَّه عليه الصلاة والسلام. وذلك فيما يقصه القرآن في قول اللَّه تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ (أي قطع عطاءه ويئس من فعل الخير)، ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ (أي أن لا فائدة من صنع الخير)، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ (وهي التوارة)، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ (أي صحف إبراهيم الخليل، وهي رسالته)، ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ

وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم:٣٣.٤٠].. فما في صحف: موسى، وإبراهيم ـ وهما من أصحاب الدور الرئيس في الرسالة الإلهية للبشر ـ بنبيء في وضوح: عن تحديد المسؤولية الإنسانية الشخصية، على نحو ما ذكرته آيات القرآن، من:

(أ) أنه ليس للإنسان إلا سعيه، وعمل الخير والصواب، وأن هذا العمل سوف يعلم ويرى رأي العيان يوم الجزاء.

(ب) ثم: أنه لا تضاف إلى نفس أخطأت في سلوكها أو في اعتقادها.. أخطاء نفس أخرى. وإنما هناك عدل تام: إن في جانب العمل الصالح فلا تحرم منه نفس باشرته، وإن في جانب العمل السيء فلا ينقل من نفس مسيئة إلى نفس قد أساءت كذلك.

وتعود هذه المسؤولية الشخصية ـ في نظر الإسلام ـ إلى ما يتميز به الإنسان من عقل وإدراك، عن بقية الكائنات الأخرى. فتميزه بالعقل جعل له السيادة والخلافة عن اللَّه في الأرض: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الأنعام:١٦٥] ولكن في الوقت نفسه جعله مسؤولًا فيما يباشره من عمل: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ ... ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة: العقل، والخلافة عن اللَّه في الأرض، وفضل بعضكم على بعض في مستوى ما يرفع به الشأن درجات، في المال، والجاه، والاستطاعة والطاقات البشرية المتفاوتة.

وقد صرح القرآن بمسؤولية العقل في الإنسان عن تصرفات الإنسان في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ (أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك): ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].. فمنافذ

الإدراك لدي الإنسان هي: سمعه وبصره، بالإضافة إلى ما يهدى هذا الإدراك إلى الصواب، وهو إيمان القلب[1].

(1) من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، د. محمد البهي، ص١٤٩.١٥١.

المبحث السادس

تمييز الإنسان بالعقل

شاء الله تعالى أن يُميّز الإنسان على سائر المخلوقات بالعقل الذي هو مناط المسؤولية والتكليف وإن العقل من أعظم نعم الله على الإنسان فمن خلاله أصبح أهلًا للخطاب الشرعي الذي ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث تمت الإشادة بالعقل وأمر الإنسان بإعماله من خلال العمليات المتنوعة من الفكر والتدبر والتحليل والتركيب والاستنباط، وتوظيفه في الإستفادة مما سخره الله تعالى في هذا الكون لصالح الإنسان ومن ثمّ «فإنه لا يجوز للإنسان أن يعطل العقل عن أداء وظيفته، لأن اللَّه خلق العقل ليؤدي وظيفته، ولهذا يعبر القرآن عن هؤلاء الذين يعطلون عقولهم عن التفكير ويصمّون آذانهم ولا يبصرون بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولو كانت الآية قد وقفت عند هذا الحد لكان في ذلك ظلم للأنعام، لأن الأنعام لا تعقل. ومن هنا كانت تكملة الآية:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهم أقل مرتبة من الحيوانات، لأن الإنسان الذي يعطِّل عقله عن التفكير هو إنسان قد تنازل عن إنسانيته. ومن هنا لا يستحق أن يطلق عليه وصف الإنسان لأنه ارتضى لنفسه أن يكون في مرتبة أقل من مرتبة الحيوان.

والقرآن الكريم يخبرنا بأن عدم استخدام العقل يُعَدُّ ذنبًا من الذنوب التي سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة. ومن هنا يشير القرآن الكريم غلى أن الكفار سوف يلومون أنفسهم يوم القيامة لأنهم لم يستخدموا عقولهم في الدنيا:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام مَلَكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل. فالتفكير في الإسلام يُعَدُّ واجبًا دينيًّا وفريضة إسلامية. ولذلك قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبره واجبًا شرعيًّا؛ وذلك أخذًا من الآيات القرآنية العديدة في هذا الشأن.

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تُعَدُّ واجبًا دينيًّا في الإسلام فإنها من ناحية أخرى تُعَدُّ مسؤولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها. وسيُحاسَب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يُسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية. وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التي أرادها الله كان حرص الإسلام شديدًا على إزالة كل العوائق التي تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته. ومن أجل ذلك طالب بتحطيم هذه العوائق ليشقَّ العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم. ويتجلى لنا ذلك بوضوح من رفض الإسلام للتبعية الفكرية والتقليد الأعمى. فالتقليد ضلال يُعذر فيه الحيوان ولكنه لا يصحُّ بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز.

وكما رفض الإسلام التقليد الأعمى رفض أيضًا كل أساليب الدجل والشعوذة والاعتقاد في الخرافات والأوهام. كما قرر المسؤولية الفردية التي تقوم على حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه في الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا. وكذلك حرَّر الإسلام الفرد

المؤمن بعقيدة التوحيد من عقدة الخوف من الجهر بالحق. فالمؤمن لا يخشى في الحق لومة لائم.

وهكذا كفل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعي ويفهم. وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيِّده، وخلَّصه من كل تقليد كان يستعبده. وبهذا ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حُرم منهما وهما: استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر[١]. وقد كان لهذا الموقف الأساسي للإسلام من العقل أثره العظيم في صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية[٢].

«إن الإنسان يُولد مزودًا بالقدرات العقلية، ولكنها تكون في حاجة للتنمية وإلى تدريب الإنسان على حسن استعمالها ورعايتها، وتتقرر درجات نموها ونشاطها وصحتها ومرضها حسب نوع التربية التي يتلقاها الإنسان»[٣].

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، ص١٣٣، دار إحياء العلوم، بيروت ١٩٧٩م.

(٢) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، د. محمود حمدي زقزوق، ص٣٠، ٣١.

(٣) أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، ماجد عرسان الكيلاني ص٧٤، سلسلة إسلامية المعرفة ـ المعهد العالي للفكر الإسلامي (٢٠)، ١٩٩٧م.

المبحث السابع

منهج الإسلام في الحفاظ على صحة العقل

ذكرنا أن الله تعالى أنعم على الإنسان بأعظم نعمة وهي: العقل الذي كان سببًا في استحقاق الإنسان للمكانة التي بوأه الله تعالى إياها وهي: الاستخلاف في الأرض وتحملّ المسؤوليات الكبيرة، ونظرًا لأهمية العقل في حياة الإنسان، فإن الإسلام جعل حمايته من مقاصد الشريعة سواء ما يتعلق بالحماية الحسية والحفاظ عليه من كل ما يؤثر على قدراته وملكاته أم بالحماية المعنوية لأجل ضمان عدم التأثير عليه من خلال الموروثات الاجتماعية من التقليد والجمود على المواريث الجامدة من التقاليد الاجتماعية التي تؤثر سلبًا على نشاط العقل، ولذا كان أو ل ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١-٥].

«إن اللَّه ﷻ كرم الإنسان بالعقل الذي هو مناط التكليف، وحثه على التأمل والنظر في آيات الكون بهدف الوقوف على أسراره وعجائبه، كما ذمَّ التقليد والجمود، وكل ما يفسد على العقل سلطانه؛ لأن بالعقل استحق الإنسان أن يكون خليفة عنه سبحانه في الأرض.

ويأتي في طليعة الأسباب المفسدة للعقل: تناول المسكرات والمخدرات؛ لذا حرمتها الشريعة الإسلامية تحريمًا قاطعًا قليلها وكثيرها، وعلى اختلاف مسمياتها وأنواعها، كما دل على ذلك قوله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»[1].

([1]) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، ٣/١٥٨٧/ح:٢٠٠٣.

ويلاحظ في المنهج القرآني في هذا أنه لم يغفل بيان علة التحريم، حتى يكون الناس على قناعة بما يفعلون، كما أنه لم يغفل بيان جزاء المخالف المصر على ممارسة العادة التي أعلن القرآن حربه عليها.

فقد ذكر المفسرون أن تحريم الخمر مرّ بثلاث مراحل، وفي كل منها بدت علة التحريم واضحة.

أما المرحلة الأولى: فقد نزل فيها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[البقرة:٢١٩].

وأما المرحلة الثانية: فقد نزل فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ...﴾[النساء:٤٣]، وقد نزلت بعد أن دعا عبد الرحمن بن عوف ناسًا من الصحابة فشربوا وسكروا، فأمَّ بعضهم فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، ﴿أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ بدون ﴿لَآ﴾، فنزلت هذه الآية، فقلَّ من يشربها بعد ذلك من الصحابة ليلًا، أما نهارًا: فقد امتنعوا ڤ عن شربها نظرًا لتقارب أوقات الصلاة، وخشية السكر أثناء القراءة فتختلط عليهم. وبذا حرمت هذه الآية الخمر تحريمًا جزئيًّا، تمهيدًا لتحريمها تحريمًا كليًّا قاطعًا في المرحلة التالية؛ حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ

وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩٠، ٩١]. وهذه هي المرحلة الثالثة والأخيرة[١].

ويلاحظ في الآية أن علة تحريم الخمر قد ذكرت فيها على نحو صريح وأوضح من ذي قبل، فهي ﴿رِجۡسٌ﴾، والرجس: الخبث المستقذر، و﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ومعنى كونها من عمل الشيطان: أن تعاطيها مما تتعاطى لأجله من تسويله للناس تعاطيها، فكأنه هو الذي عملها، وفي ذلك تنفير لمتعاطيها بأنه يعمل عمل الشيطان فهو شيطان، وذلك مما تأباه النفوس[٢].

أما قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾: فهو من أبرز صيغ الدلالة على التحريم، فالاجتناب يعني في اللغة: البعد، فكأن اللَّه تعالى يقول: إن كانت الخمر في جانب فكونوا في جانب آخر، ولذا عبر بهذا اللفظ في القرآن حين النهي عن اعتناق العقائد الزائفة والخصال الشنيعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [الزمر:١٧]؛ مما يدل

---

(١) جامع البيان ٣٧٤/٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٣٨٩/٢، والمحرر الوجيز ٢٣١/٢، وتفسير ابن كثير ٥٧٩/١، وتفسير آيات الأحكام للسايس ١٢٠/١، وتاريخ التشريع الإسلامي، أ. محمد الخضري بك، ص١٨، ١٩، المكتبة التجارية، القاهرة، ط٩، ١٩٧٠م، وتاريخ التشريع الإسلامي، أحمد إبراهيم بك، ص٧، ٨، دار الأنصار، القاهرة، د.ت.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٤/٧.

على أن هذا اللفظ: (الاجتناب) هو اقوى الألفاظ دلالة على التحريم من غيره[١].

ثم كشفت لنا الآية عن الأهداف الخبيثة التي يريد الشيطان أن يحققها من وراء تسويله للناس تعاطي الخمر: إنه يريد أن تحل البغضاء والعداوة محل الوئام والمحبة بين صفوف المسلمين، هذا بالإضافة إلى هدفه الخبيث في توهين صلة المؤمن بربه بصده عن ذكر اللَّه وعن الصلاة؛ لما تحدثه الخمر من غيبوبة في العقل، وزوال سيطرته على تصرفات متعاطيها[٢].

تنمية عقل الإنسان:

ركز الإسلام على تنمية عقل الإنسان من خلال تنشيطه بالقراءة والتعلم وتفعيل وسائل المعرفة وإن القراءة مسألة غاية الأهمية، ومن ثم فقد جاء الأمر بها في أول ما نزل من القرآن.

التوجيه بالقراءة:

«عندما نزل الوحي القرآني على محمد ﷺ جاءت الآيات الخمس الأولى مشتملة على الأمر بالقراءة مرتين، وعلى الإشادة بالعلم، وبالقلم الذي هو وسيلة تدوين العلم. وذلك في قوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١-٥].

---

(١) تحريم الخمر والرد على من يدعي أن النص القرآني لا يحرمه، الشيخ: عثمان بن عبد القادر الصافي، ص٢٣، ٢٤، المكتب الإسلامي بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

(٢) انظر: عناية القرآن بحقوق الإنسان، دراسة موضوعية وفقهية، د. زينب عبد السلام أبو الفضل، ص١١٧-١١٩.

والقراءة هنا تعني قراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم الذي يحمل المنهج الإلهي للإنسان، وتعنى أيضًا قراءة الكتاب المفتوح وهو الكون الكبير. كما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس:١٠١].

وهكذا الأمر بالنظر يعني دراسة ما يشتمل عليه هذا الكون من آيات إلهية، واكتشاف القوانين التي تحكم مسيرته، والبحث عن أفضل السبل التي تضمن حسن استغلاله من أجل خير البشرية جمعاء.

وهنا يمكن أن نلحظ أن هناك ربطًا حكيمًا بين تزويد الإنسان الأول بالعلم والعودة مرة أخرى إلى التأكيد على العلم في الوحي الأخير للبشرية. وهذا الربط لم يأتِ من فراغ. إنه يعني استمرار التكليف الإلهي الأول للإنسان بمهمة إعمار الأرض ماديًا ومعنويًا، الأمر الذي يؤكد أن رسالة الدين هي الإعمار والبناء والعمل من أجل الخير والحق والسلام.

وهذا يعني أن الدين قد جاء لمصلحة الإنسان ومن أجل خيره وسعادته في دنياه وأخراه. وبين التعليم الأول لآدم والوحي الأخير لمحمد سارت البشرية خطوات كبيرة في سُلَّم الإعمار وصنع الحضارة، ولكنَّ ذلك لم يكن نهاية الطريق ولن يكون. فالطريق أمام البشرية لا يزال طويلًا، والكشف عن آيات اللَّه في الكون وفي الإنسان سوف يستمر إلى قيام الساعة.

ومن الواضح أن هذا الربط الوثيق بين هذين التعليمين يبيِّن للإنسان مدى الأهمية الكبيرة للعلم الإنساني في مسيرة البشرية[1]، ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يوصى محمدًا ﷺ بأن يدعو ربه الاستزادة من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٤]. وفي ذلك حفز لنا على السير على منواله والاقتداء به.

---

(1) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، د. محمود حمدي زقزوق، ص٣٨، ٣٩.

إن العقل الإنساني يُعَدّ أجلَّ نعمة أنعم اللَّه بها على الإنسان، ووظيفة العقل الإنساني هي: التفكير. وقد اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بالتفكير الذي من خلاله يستطيع الإنسان أن يميِّز بين الأمور ويحكم على الأشياء والأشخاص، ويبتكر ويبدع في جميع المجالات. وقد ورد الحث على التفكير في العديد من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. وأكثر التعبيرات التي وردت في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ومن خلال النظر في الأساليب القرآنية الواردة في هذا الشأن نجد أن القرآن الكريم يُحفِّز الناس على التفكير ويأمرهم به في سياقات متنوعة. وعادة يأتي ذلك عقب ذكر العديد من آيات اللَّه الكونية أو الإنسانية، أو الحديث عما يتضمنه القرآن الكريم من حِكَم بالغة، أو بعد الإشارة إلى بعض الأمثال أو القصص، أو حتى بعد التنبيه إلى ما بين الزوجين من المودَّة والرحمة، أو غير ذلك من أمور تتطلب من الإنسان أن يشحذ ذهنه وعقله لفهمها وإدراك ما تنطوي عليه من سنن وأسرار إلهية.

ولم يقتصر الإسلام على حث الناس على ممارسة التفكير في الأمور الدنيوية البحتة، بل فتح الباب واسعًا لممارسة التفكير أيضًا في الأمور الدينية من أجل البحث عن حلول شرعية لكل ما يستجد من مسائل الحياة. وهذا هو ما يسميه الإسلام بالاجتهاد، بمعنى الاعتماد على الفكر في استنباط الأحكام الشرعية.

ويُعَدُّ الاجتهاد - بهذا المعنى - مبدأ الحركة في الإسلام كما يقول المفكر الإسلامي المعروف محمد إقبال[1]. وقد تقررت في ذلك قاعدة إسلامية تقول:

([1]) انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام للدكتور محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ص١٤٤، ١٦٨ - ١٧٠، القاهرة ١٩٦٨م.

«إن المجتهدَ إذا اجتهدَ فأخطأَ فله أجرٌ واحدٌ وإذا اجتهدَ فأصاب فله أجران»[١]،[٢].

(١) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، ص٦٦، ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب: الاعتصام، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، بلفظ «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» ٩/١٠٨/ح:٧٣٥٢.

المبحث الثامن

التفكير وأثره في تنمية شخصية الفرد

«إن من أهم وظائف العقل البشري: التفكير والتأمل والنظر، وإذا تعطلت هذه الوظائف تعطل نشاط العقل ونموه وقدرته على العطاء، ويتبع ذلك توقف النشاط البشري وجموده بل وفناؤه.

ولذا فإن التفكير هو وسيلة العقل في فهم قوانين الحياة وعلل الكون وسنن اللَّه في خلقه. ولولا التفكير ما تطورت البشرية ونهضت منذ فجر حياتها الأولى، ولهذا دعا الحديث النبوي إلى التفكير والتفكر في آيات اللَّه تعالى وفي بديع خلقه. فالتأمل والتفكير في خلق اللَّه من أفضل أنواع العبادة.

لقد أوصى الرسول ﷺ بالتفكير في خلق اللَّه، ونهى عن التفكير في ذات اللَّه، لقصور العقل الإنساني عن إدراك ما هو خارج نطاق قدرته. فالله تعالى ليس كمثله شيء، والعقل الإنساني إنما يفكر على أساس ما لديه من صور حسية، فوسيلة العقل إلى اللَّه وإلى معرفته هي تدبّر الظاهر للحسّ.

وقد أشاد النبي ﷺ بالعقل الذي يقوم بوظيفة التفكير، ويمكن أن نسوق مثالًا حيًّا على ذلك حديث النخلة. فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»[1].

بتحليل هذا الحديث نلمس بوضوح تام الخطوات الرئيسة لعملية التفكير، التي سبقت إليها السنة النبوية وأثبتتها النظريات الحديثة، على النحو الآتي:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: قول المحدث: حدثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، ١/٢٢/ح:٦١.

١. أثار هذا الحديث مشكلة أمام الصحابة ليفكروا في حلّها، وهي التوصل على معرفة الشجرة التي لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، مع استخراج أوجه الشبه بين المسلم وتلك الشجرة.

٢. شرع الصحابة في البحث عن حلّ هذه المشكلة في ضوء خبراتهم السابقة بالأشجار.

٣ـ ثمّ بدأوا يزنون فروضهم ويقارنون في أذهانهم أوجه الشبه بين تلك الأشجار والمسلم.

٤. توقع الناس أن الشجر المقصود هو شجر البوادي.

٥. توصل أحدهم إلى الحل العلمي الصحيح بعد تمحيص فروضه بدقة وهو عبد اللَّه بن عمر ڤ، عندما هداه تفكيره إلى أن الشجرة المقصودة هي النخلة ولكن غلبه الحياء فلم يبد الإجابة.

ففي هذا الحديث درّب النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم على خطوات التفكير المستنير بإعطائهم المثال الحي الذي يمكن الاقتداء به في مختلف عمليات التفكير[١].

وقد حرص النبي ﷺ على أهمية فهم أمور الدين حين قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»

وقد تأسى أصحاب رسول اللَّه ﷺ بالنبي ﷺ في شحذ همم الصحابة في الفهم فقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ الصحابة عن فهمهم لقوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

---

(١) حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، يسري محمد راشد، ص١١٧ ـ ١١٩.

ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ»، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] «وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ»، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣]، فَقَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ»[1].

وهذا تدريب عملي على أهمية حفز الهمم على التفكير والبحث والمعرفة، وبالطبع فإن هذا لا يتأتي من فراغ وإنما يأتي بعد توفيق اللَّه، ثم الصبر والحرص على طلب العلم وإعمال العقل والإخلاص في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[النصر:٣]، ٦/١٧٩/ح:٤٩٧٠.

المبحث التاسع

اهتمام الإسلام بالحرص على تحصيل العلم

«لقد اعتبر المنهج الإسلامي العلم عنصرًا مهمًّا من عناصر تكوين الشخصية، وسرًا من أسرار تكريم الإنسان، وبه يتميز عن سائر المخلوقات ويستحق التفضيل على سائر الخلق، ولن يكون له ذلك إلا إذا تعلم، فالإنسان يزداد فضلًا بقدر ما يزداد علمًا، وتحصيل العلم من أهم ما يسهم في بناء الشخصية الإنسانية. فالله ﷻ قد غرس في ذات الإنسان حب التعلم، وذلك ما نشاهده من ميل الإنسان الفطري لمعرفة ما يجهله في هذه الحياة، والإسلام: وهو دين الفطرة قام بتغذية هذا الميل وحثه على استخدام كل وسيلة من شأنها تكوين حب العلم في ذاته، وذلك بعكس الديانات التي حرفها معتنقوها، إذ يقف العلم هناك في وجهة مقابلة للدين[١].

فالإنسان يأتي إلى هذه الدنيا مجردًا من العلم والمعرفة، ولكنه مزود بقُوى إدراك يُمكن من خلالها أن يتعلم. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

إن الإنسان من خلال عمليات التعلم والبيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها يستطيع أن يكتسب المعارف والعلوم عبر وسائل المعرفة من السمع والأبصار والأفئدة، وبقدر حرص وإخلاص الإنسان في طلب العلم يكون حظه من هذا الأمر.

---

(١) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبد اللَّه التركي، ص١٤٧.

إن الإسلام حث الإنسان على تفعيل وسائل المعرفة التي يمكن من خلال تفعيلها والاستفادة منها أن يمارس الإنسان دوره في هذه الحياة بشكل إيجابي، لأن الله تعالى حباه بهذه الوسائل من السمع والبصر والفؤاد ليستفيد منها، وبيّن له الآثار السلبية المترتبة على تعطيلها وتأثير ذلك على مكانة الإنسان.

وقد بيّن النبي ﷺ أهمية الحرص على فهم أمور الدين فقال مُحفزًا الصحابة ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١).

وتسابق الصحابة ﷺ في تحصيل العلم وبزّ بعضهم بعضا وقد شجع النبي ﷺ ذلك فقال: «أَرْحَمُ أُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَقْرَؤُهَا لِكِتَابِ اللهِ أُبَيٌّ، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ»(٢).

وجاءت آيات القرآن الكريم فبينت منزلة وفضل العلماء، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال جل شأنه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فالمنهج الإسلامي قد حث على اكتساب المعارف والعلوم النافعة لأنها إحدى الوسائل الهامة لبناء الشخصية الإسلامية. فلم يسبق لرسالة سماوية قبل الإسلام ولا غيرها حثت على العلم ورفعت منزلته، ومنزلة أهله وبينت الثمرات الطيبة في العاجل والآجل التي يجنيها الإنسان من العلم، مثل: رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وذلك لأن العلم النافع يؤدي إلى سعادة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: العلم قبل القول والعمل، ١/٢٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند أنس بن مالك ﷺ، ٢٠/٢٥٢/ح:١٢٩٠٤.

الإنسان في الدنيا والآخرة، ويجعل من الإنسان شخصية مستقلة، ذات خلق رفيع.

ولكي يصبح الإنسان شخصية إسلامية عليه أن يطلب العلم فيما يحتاج إليه، ويعرض عما لا فائدة فيه. فإنه لما سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن موعد قيام الساعة: قال للسائل: «ما أعددت لها»، إعراضًا عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة، ولم يجبه عما سأل[١].

إن القرآن الكريم حث على طلب العلم في المجالات المعرفية المختلفة ليس على مستوى العلوم الشرعية فحسب ـ كما يتصور البعض ـ بل على مستواها ومستوى العلوم التجريبية، وليس معنى ذلك أن كل إنسان مطالب بذلك، وإنما ينبغي أن يحرص أفراد المجتمع ـ من الدارسين ـ على الاهتمام بالتخصصات العلمية المختلفة الشرعية وغير الشرعية من العلوم النظرية والتجريبية، لأن كل علم تحتاجه الأمة وتحتاجه المجتمعات يُعدّ من العلوم النافعة والسعي في طلبه والتخصص فيه مطلب شرعي، وإن المسلمين ما تقدموا وما أصبحت لهم حضارة إلا من خلال الفهم الواقعي والموضوعي في دراسة العلوم، ولكن حينما اختزلت فئات من الناس طلب العلم في الجوانب الشرعية فقط، دون الجوانب التجريبية، فإن ذلك أدى إلى نوع القصور في هذه المجالات في مقابل الوفرة في التخصصات الشرعية.

وقد حذر الإسلام من العقلية السطحية والخرافية أو التي تنطلق في تصوراتها وأحكامها على التقليد والمجاراة والمحاكاة، ولذا نعى على الإمعات الذين يبنون عقائدهم على مجاراة العرف أو اتباع الآباء أو طاعة السادة والكبراء.. كما نراه ينعى على الذين يتجرون بعقائدهم ومبادئهم جريًّا وراء الأرباح والمغانم،

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (١/٤٦، ٤٧)، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

وانضمامًا إلى الصف الذي يجر لهم منفعة عاجلة، أو يدفع عنهم مخافة عاجلة:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾[القصص:٥٧].

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾[المائدة:٥٢].

ولكنه يدعونا دائمًا إلى الإيمان عن طريق النظر المستقل، والتفكير الحر في الآيات والأدلة:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس:١٠١].

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات:٢٠، ٢١].

ثم نراه يصف دعوته إجمالًا بأنها دعوة مستنيرة، قائمة على نور البصيرة:

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[يوسف:١٠٨].

بل تراه يلخص وصاياه لطالبي الوصول إلى الحق في وصية واحدة رئيسية:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾[سبأ:٤٦].

من هذا كله يتبين أن أساس الإيمان في نظر القرآن هو المعرفة العقلية، ولكننا نرى في الوقت نفسه أن القرآن لا يكتفي بهذه المعرفة العقلية حتى ولو بلغت درجة اليقين، ما لم يركن لها القلب، ويطمئن لها الوجدان، ويتجاوب صداها في أعماق الضمير.

إن الإيمان إذن معرفة تتغذي بها النفس، وتهضمها وتتمثلها، وتعدها جزءًا من كيانها، معرفة يشعر الفؤاد معها ببرد وثلج.. ولا تجد النفس فيها أثرًا من الضيق أو التبرم:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

إنه لا بد في الإيمان من عمل العقل والقلب جميعًا»[١].

«إن الإسلام دين المجتمع البشري. ومن لا يدرك هذا فقد أخذ في مفهوم الإسلام ما ليس منه. هو دين تناول بناء الفرد، وبناء الأسرة، وسياسة الأفراد في علاقاتهم بعضهم ببعض داخل المجتمع، وتناول أيضًا سياسة مجتمع قام على الإيمان بالإسلام نحو مجتمع آخر لم يشاركه هذا الإيمان.

كما أنه لا يجرد الفرد غير المسلم من اعتبار الإنسانية ووجوب الرعاية، وبالأخص من ممارسة العدل معه، ما دام لا يرتكب الظلم والعدوان:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾[المائدة:٨].

ومع اختلاف الإسلام عن النظرات التي توجِّه المجتمع الإنساني الحديث في الموقف تجاه الذي لا يؤمن بالقيم التي يدعو إليها ـ فردًا أو مجتمعًا ـ فهذه النظرات الفلسفية المعاصرة تحاول أن ترى الإسلام على أنه كان لحقبة معينة من الزمن، هي حقبة الرسول ﷺ، لمكان معين هو شبه الجزيرة العربية، ولقوم خاصين هم القبائل العربية التي لم يكن لها حظ من الحضارة الإنسانية»[٢].

---

(١) نظرات في الإسلام، د. محمد عبد اللَّه دراز، ص١١ ـ ١٤.

(٢) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ٣/٩، ١٠.

المبحث العاشر

العبادات وأثرها في بناء الشخصية

مما لا شك فيه أن العبادات التي فرضها الله تعالى لها غايات نبيلة على المستوى الفردي وعلى المستوى المجتمعي، فالعبادات لها دور عظيم في بناء شخصية الإنسان وصقلها وتحريرها من كل ما يمكن أن يؤثر سلبًا عليها، إن العبادات في الإسلام ليست طقوسًا يقوم بها الإنسان، وإنما هي روح تسري في جسم الإنسان، فالصلاة: تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام: يعمل على تنمية وتقوية الضمير لدي الإنسان، والصدقة: طهارة للنفس من الشح والبخل وعملية ترقية للشعور الإنساني بالآخرين، والحج: تجتمع فيه المعاني الإيمانية المختلفة فهو جهاد بالنفس والمال وانقياد وتجرد لله تعالى ورغبة في نيل رضوان الله، إن العبادات لها غايات عظيمة على مستوى الفرد والمجتمع.

«وإن الفروض التي فرضها الإسلام على الإنسان، وكذلك النصائح التي يوجهها الإسلام إلى الإنسان . مرة في صورة العمل والفعل وأخرى في صورة النهي والترك . تهدف جميعها إلى معاونة الإنسان في إيقاظ معنى البشرية فيه، وفي حمله أن يكون إنسانيًّا فيما ينوي وفيما يسلك سلوكًا شخصيًّا وفيما يعامل غيره.

إن الإسلام فرض عبادات الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج... إن هذه الفرائض تهدف لغاية واحدة وهي: أن يكون الإنسان ذا كرامة، على معنى أن يكون محتفظًا بخصائص الطبيعة التي خلق عليها والتي مُيِّز بها عن غيره:

أ . فالصلاة التي يؤديها المسلم كل يوم خمس مرات ليست ركوعًا ولا سجودًا، بقدر ما هي تَوَجُّه إلى اللَّه ﷻ، وبقدر ما هي انتزاع مما قد يؤثر على الإنسان في إنسانيته ويستعبده أو يذله، ثم لقاءٌ له مع اللَّه المعبود الذي لا شريك له، وفي هذا اللقاء تعظم النفس شأن المولى ﷻ، بقدر ما تستهين بالمغريات

الأخرى التي تحيط بالإنسان في حياته، والتي قد تتحكم في مصيره وتنحدر به من مستواه البشري إلى مستوى آخر أدنى.

وإذا كان لقاء الإنسان مع ربه في حياته اليومية على هذا النحو، فلا بد أن يحتفظ بإنسانيته، وبالتالي بكرامته، فلا يترك نفسه تذل لمستذل... ولا يدع ذاته تسير في طريق يهوي بها إلى إهدار بشريتها.

ب ـ والصوم الذي فرض على المسلم أن يؤديه شهرًا في عامه، يهدف أيضًا إلى ما تهدف إليه الصلاة اليومية... يهدف إلى تكوين طاقة في النفس تستعين بها على رفض المذلة وعدم الاستجابة لما يمس كرامتها الإنسانية، إن سعى إلى ذلك ساع أو دعت إليه ضرورة في الحياة... هذه الطاقة التي يحصِّلها أداء فريضة الصوم في نفس الصائم هي التحكم فيما يجب أن يفعل وفيما يجب أن يترك، مهما توفرت الدواعي التي من شأنها أن تجعل فعل ما يجب أن يُتْرَك أمرًا شاقًا يصعب على النفس التي لم تتمرس على أداء فريضة الصوم أن تفعله أو تتركه.

وإذا ملكت النفس البشرية هذه الطاقة ـ وهي طاقة التحكم فيما يجب أن يُفعل وفيما يجب أن يُترك ـ فمن العسير عليها أن تطرح كرامتها الإنسانية في سبيل ما يغريها أو ما يدفع عنها حاجتها، والصائم بهذه الطاقة ـ في ارتفاعه عن مستوى قبول الذلة والانحدار ـ هو قرين المصلي الذي ارتفع بلقائه مع اللَّه ـ جل شأنه ـ في صلاته على هذا المستوى أيضًا ... فإذا كان المصلي هو نفس الصائم فيكون عندئذ إنسانًا تضاعفت فيه الاستطاعة على المحافظة على كرامة الإنسان، وبالتالي تضاعفت فيه الاستطاعة أيضًا على رفض الانحدار عن مستوى طبيعته التي تميز بها عن غيره.

جـ ـ والزكاة التي وجب أداؤها على المسلم كذلك، هي صورة عملية واضحة للتعبير عن تلك الاستطاعة التي تزودت بها طبيعة المصلي الصائم، فطالما

يكتسب المصلي استعدادًا ضد الانحدار عن مستواه الإنساني بلقائه مع اللَّه في صلاته، وطالما يكتسب الصائم بأدائه فريضة الصوم، طاقة يتحكم بها في فعل ما يجب أن يُفعل وترْك ما يجب أن يُترك . فمن السهل عليه أن يعطي لغيره ما يجب إعطاؤه من مال عن رضا؛ لأن المال لم يعد الآن فتنة له، ولم يصل في حياته إلى درجة أن يكون ذا سلطان عليه يدفعه إلى تحصيله حيثما يكون، ولو كان في طريقة تحصيله دفع إلى التفريط في كرامته البشرية.

وإذا كانت الزكاة من جانب، صورة عملية للتعبير عن أثر الصلاة والصوم، فإنها من جانب آخر دفع إلى تأكيد الغاية التي تحققها هاتان الفريضتان؛ لأن المال عن طريق أداء الإنسان نحو التفريط في كرامته يخف أثره أو يتلاشى، وهنا يسهل على النفس أن تحتفظ بكرامتها، كما يسهل عليها مقاومة أي إغراء آخر ينزل بها عن مستوى الإنسانية.

وباجتماع آثار هذه العبادات الثلاث . الصلاة والصوم والزكاة . يكون الفلاح حتمًا للإنسان المؤدي لها، وليس فلاحه إلا أن يكون إنسانًا عرف طبيعته ومارس خصائصها في حياته العملية»[1].

والحج عندما يؤديه القادر على أدائه يضم في نفسه معنى يزيد من قوة استطاعته التي تكونت لديه للمحافظة على كرامته الإنسانية، عن طريق أداء العبادات الثلاث . الصوم والصلاة والزكاة . هذا المعنى هو ما يتولد عن الأخوة والمساواة في الطبيعة البشرية التي تفرضها عبادة الحج، من وقوف الحجيج في وقت واحد وفي لباس موحد وبشعار موحد، هو شعار الطاعة والولاء لله وحده عندما ينادونه ﷻ بقولهم: (لبيك اللهم لبيك).

---

(1) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ص٦٨.٧١.

والشعور بالأخوة والمساواة يساعد حتمًا في أن يحتفظ الفرد في جماعته بمستواه الإنساني وبكرامته الإنسانية، إذ لا يكون هناك سيد ولا مسود ... وإنما هناك أُخُوَّة في البشرية والمساواة، في التوجه إلى اللَّه وفي الإيمان به.

لقد كان من أثر فروض العبادات في الإسلام إيقاظ الوعي في الإنسان بالقيمة الحقيقية المادية وحياة المُثُل العليا، وذلك على نحو: أن حياة المُثُل تصور الحياة الإنسانية في جوهرها، وتصور كذلك الكفاح الحقيقي للإنسان في سبيلها... وبذلك يعلو المؤمنون فوق الخصومات والاحتكاك يكاد ينحصر في تأكيد القيمة والمبالغة في تقويم الجانب المادي من الحياة.

وإذا علا المؤمنون فوق مستوى الخصومات والاحتكاك، فإن العلاقات بين بعضهم بعضًا ستنمو وتقوى بحيث يكون ولاء بعضهم لبعض نتيجة حتمية، وبحيث يُؤْثِرُ كلٌّ واحد الآخر بولائه على أي فرد آخر لا ينتمي لأمته ومجتمعه، وهنا ندرك قول اللَّه تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٧١].

فالقرآن هنا يخبر عن العلاقة بين المؤمنين على النحو الذي أخبر به كأنه أمر مقرر وضرورة لازمة في صلة المؤمن بالمؤمن...

وعلى هذا الأساس ضَمِن الإسلام للأمة الإسلامية قوتها وتماسكها الداخلي، كما ضمن لها مشاركة أفرادها في مواجهة الكوارث وفي مواجهة الأزمات، وأصبحت سلامة المجتمع في هذا الولاء المتبادل أو في تحقيق معنى الإيمان في وصفهم به»[1].

([1]) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ص٧٣ . ٧٥.

الفصل الثاني

منهج الإسلام في بناء المجتمع

المبحث الأول

نظرة الإسلام لبناء المجتمع

يعمل الإسلام على مطالبة كل فرد من أفراد المجتمع بالعمل على تحصيل رزقه الذي يكفل حاجته ويوفر له حياة نفسية هادئة، وقد أشعر الإسلام الأغنياءَ الذين آتاهم الله من ماله أن هذا المال، وإن كان معقودًا في ملكيته بأسمائهم، إلا أن حق الانتفاع به مشترك بينهم وبين إخوانهم الفقراء الذي يكوِّنون المجتمع معهم، وقد أوجب الإسلام مدّ يد المعونة إلى الفقراء والمساكين وأرباب الحاجات، إما بالبذل وإما بتهيئة العمل، كما أوجب مدّها إلى أولياء الأمر بما يمكِّنهم من إقامة المصالح التي تحقق خير المجتمع، حتى يتم وضع المعونة في موضعها، ويتم رفع المعاناة عن كال المحتاجين.

لهذا حذَّر الإسلام كل التحذير من الإسراف، وإنفاق الأموال حيث لا ضرورة تلجئ إليه ولا حاجة تقتضيه.

على هذه الأسس التي تقتضيها الأخوة، والتراحم والتعاون، والاشتراك في الإحساس، وتبادل الشعور بين الأفراد بعضهم مع بعض، وبينهم وبين الدولة، امتلأ القرآن ـ في مكيّه ومدنيّه ـ بآيات الحث على الإنفاق للفقراء والمساكين وفي سبيل الله، وقد وُجِّهت العناية الكبرى في ذلك إلى قضاء الحاجات الشخصية التي تطرأ على الأفراد فتُوهن من قوتهم، وتُضعف من روحهم. ولا ريب في أن قلقهم في الحياة مع رؤيتهم تمتُّع إخوانهم الأغنياء، مما يضاعف همَّهم، ويفتح لهم شر النوافذ التي يعكِّرون بها على المجتمع صفوَ الحياة، ويزلزلون عليه عناصر الأمن والاطمئنان.

بهذا الوضع نهج الإسلام نهجه في بناء المجتمع، حيث ربط به بين أفراده بما يجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وكاليدين تغسل إحداهما الأخرى .

بهذا الوضع الذي يركزه الإسلام ويدعو إليه، ويحذِّر مخالفته أو التهاون فيه، حيث يعتبر التهاون إلقاءً بالأنفس إلى التهلكة، بهذا كان من غير المعقول أن يبيح الإسلام للغنى فيه القادر من أبنائه أن يستقل بمتعة ماله، وأن ينفرد بحق الانتفاع به دون أن يمد يده لسدِّ حاجة المحتاج من أفراد المجتمع.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]، وصح عنه أنه قال: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ». ويقول المحدث: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ[2]. ويقول عمر بن الخطاب ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَأَخَذْتُ فُضُولَ الْأَغْنِيَاءِ، فَقَسَمْتُهَا فِي فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»[3].

وإذا كان من غير المعقول في الإسلام . وموقفه هكذا من مبدأ التعاون . أن يباح للغنى أن يقبض يده عن معونة أخيه الفقير، أو عن المساهمة في إقامة

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلم ولا يسلمه، ١٢٨/٣/ح:٢٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، ١٩٩٦/٤/ح:٢٥٨٠.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: اللقطة، باب: استحباب المؤاساة بفضول المال، ١٣٥٤/٣/ح:١٧٢٨.

(3) الأموال لابن زنجويه، كتاب: الصدقة وأحكامها وسننها، باب: ما يجب على صدقة المال من الحقوق في المال سوى الزكاة، ٧٨٩/٢/ح:١٣٦٤.

المصالح العامة، فمن غير المعقول بوجه أبعد وأشد أن يباح له شد الخناق على رقبة أخيه الفقير، أو دولته الفقيرة المحتاجة، ففرض عليه أو عليها في مقابلة المعونة الواجبة دراهم معدودة يردها إليه أخوه الفقير المحتاج، أو دولته الفقيرة المحتاجة، زيادة على رأسماله الذي أقرضه إياهم، سدًّا للحاجة أو إقامة للمصلحة.

ومن هنا حرَّم الإسلام ـ إبقاءً على هذه المبادئ الإنسانية ـ تحريمًا قاطعًا أن يتخذ الغنى حاجة أخيه الفقير، أو دولته المحتاجة، فرصةً لاكتساب المال عن هذا الطريق الذي لا خير فيه للمجتمع ولا للأفراد، والذي يجعل الغنى في تربُّص دائم لحاجة المحتاجين، يستغلها في زيادة ماله، دون عمل يحقق به نسبته إلى المجتمع، وجزئيته في بنائه، والذي ينزع من قلبه الشعور بالوحدة، ومعانى الرحمة والعطف التي هي من خصائص الإنسان الفاضل[١].

لقد استطاع النبي ﷺ أن يبني المجتمع الفاضل المتماسك من خلال ترسيخ التعاون بين أفراده والتراحم الكبير الذي تجسد في عدد من التطبيقات العملية سواء في عملية المواخاة بني المهاجرين والأنصار، أم من خلال التنافس على فعل الخيرات وسدّ حاجات المحتاجين وقد ضرب أصحاب رسول الله ﷺ الأمثلة الحية في ذلك مثلما فعل عثمان بن عفان ﷺ عندما اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للمسلمين، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ، فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلاَءِ المُسْلِمِينَ» فَاشْتَرَاهَا عُثْمَانُ ﷺ [٢]، وقال أيضًا: «مَنْ

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ـ الشيخ محمود شلتوت، ص٢٢٥.٢٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسومًا كان أو غير مقسوم، ٣/١٠٩.

يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيُوَسِّعُ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَهُ الْجَنَّةُ»[١] وما فعله عبد الرحمن بن عوف كان ممن يُفتى على عَهْد رسول الله ﷺ، وروى الزهري قال: تصدّق عبد الرحمن بن عوف على عَهْد رسول الله ﷺ بشطر ماله، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة وقيل: إنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبدًا، وما فعله طلحة بن عبيد الله وكان يعرف بطلحة الخير، وطلحة الفياض؛ لكَرَمِه وجُوده، فقال ﷺ: «سَمَّانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: طَلْحَةَ الْخَيْرِ، وَفِي غَزْوَةِ ذِي الْعَشِيرَةِ: طَلْحَةَ الْفَيَّاضَ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ: طَلْحَةَ الْجُودِ «قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ» بِالسِّينِ وَالشِّينِ جَمِيعًا، فَبِالسِّينِ مِنَ الْعُسْرَةِ، وَبِالشِّينِ مَوْضِعٌ»[٢]، وغير ذلك كثير مما يُجسِّد المنهج الإسلامي في بناء المجتمع.

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني، كتاب: البيوع، أبواب ما يجوز بيعه وما لا يجوز، باب: النهي عن بيع فضل الماء، ٥/١٧٣.

(٢) أورده الطبراني في المعجم الكبير، كتاب: العشرة، باب: من فضائله ﷺ، ١/١١٢/ح:١٩٧.

المبحث الثاني

علاقة الفرد بالمجتمع

الفرد هو أساس المجتمع وما يتمتع به المجتمع من مقومات إنما هو مُحصِّلة لما يمتلكه الأفراد من إمكانات، ومن هنا ركَّز الإسلام في البداية على عملية بناء الفرد لأنها أساس بناء المجتمع، فمع استقلالية شخصية الإنسان في الإسلام ومسؤوليته الخاصة إلا أن هذا لا يعفيه من مسؤولياته المجتمعية، لأنه لبنة أساسية في هذا المجتمع، والإنسان في الإسلام لم يُخلق ليعيش لنفسه وإن ما يتمتع به من نعم؛ فإن الآخرين من أفراد المجتمع لهم حقوق فيها، وبقدر مشاركة الإنسان لمجتمعه وتعاونه مع أفراده واحساسه بهم تكون مكانة الإنسان عند الله، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك حيث قال: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»[١]، وقال ﷺ: «وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[٢]، ولذا فإن الفرد في نظر الإسلام لا ينفصل عن المجتمع، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك فقال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[٣].

إن رسول اللَّه ﷺ عمل على تربية الأفراد على الحس الاجتماعي والشعور الإنساني بالآخرين والإحساس بالمسؤولية، «وإذا كان المجتمع المسلم ليس

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب: البر والصلة، باب: فضل قضاء الحوائج، ٨/١٩١/ح:١٣٧٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٤/٢٠٧٤/ح:٢٦٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/١٩٩٩/ح:٢٥٨٦

وراء أفراده، وإنما هو الأفراد بعينهم وأشخاصهم . كانت علاقة الفرد بالمجتمع، هي نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه. والفرد باق بكيانه الشخصي المستقل، ووجوده كفرد وكوحدة بذاتها لم يُمسّ، وكل ماجَدّ له من المجتمع الذي هو عضو فيه . أنه قد أضيفت إليه اعتبارات خاصة بحكم هذا المجتمع، وهي اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه في المجتمع، وهي اعتبارات الواجبات التي تؤدي من قبل الفرد نحو الآخرين معه، والحقوق التي تعطي له من هؤلاء الآخرين معه، وهي واجبات عليهم أيضًا.

والفرد في المجتمع المسلم طالما لم يُمسّ كيانه كوحدة بذاتها، مستقل في التصرف يتمتع بإرادة حرة، وبحرية في التملك. ولاستقلاله وحياته حرمة شخصية، لا تهدر ولا تزول.

ولكن . لأنه قد أضيفت إلى وجوده الشخصي الفردي اعتبارات خاصة بحكم المجتمع الذي يعيش فيه ويشترك مع أفراده في الغاية العامة، ويكون بعضويته جزءًا من كيانه العام . ليس استقلاله في التصرف استقلالًا مطلقًا وليست حرية إرادته حرية كاملة، وليست حريته في حق التملك مطلقة، وبالتالي ليست حرمته الشخصية حرمة على الإطلاق.

الفرد مع الأفراد الآخرين، أو الفرد مع المجتمع . من وجهة نظر الإسلام . وحده تتفاعل مع غيرها، تأخذ وتعطي، وتتوقف عن التصرف. لها استقلال مقيد، وحرية مقيدة، والفواصل التي تحدد استقلال الفرد في المجتمع المسلم في التصرف والتملك على السواء هي الفواصل التي بين الحلال والحرام. و«الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ»[1]. إذ الحلال هو ما يمثل النفع الفردي أو النفع

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ١/٢٠/ح:٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/١٢٢١/ح:١٥٩٩.

العام، هو نفع الآخرين مع الفرد في المجتمع، والحرام بالعكس هو ما يمثل الضرر الفردي، أو الضرر العام، وهو ضرر الآخرين مع الفرد في المجتمع.

إن استقلال الفرد محدود بحدود علاقته بالآخرين. فإن تجاوز في تصرفه وتملكه دائرة النفع، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع. والفرد حينئذ يجب أن يرد إلى دائرة النفع، ويحال بينه وبين الإضرار بالآخرين إضرارًا أدبيًّا أو ماديًّا.

استقلال الفرد في المجتمع الإسلامي لا يُلغَى إذن بعلاقته بالآخرين، ولكنه يحد فقط. فالمرأة بزواجها لا تفقد هذا الاستقلال في التصرف والتملك، ولا تفقد الحرية فيما ترى وتعتقد. حتى في مهرها الذي هو نحلة وعطية من زوجها إياها لا يجوز استرداد جزء منه إلا عن رضا واختيار منها: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾[النساء: ٤].

وإذا كانت المرأة بعقد الزواج ـ ووضعيتها عندئذ تنبئ عن الاندماج ـ لا تفقد استقلالها في التصرف والتملك، فأي فرد مع فرد آخر أو أفراد آخرين معه لا يفقد هذا الاستقلال بحال. لكن فقط يحد من هذا الاستقلال إذا اقتضت المصلحة العامة هذا التحديد. وليست المصلحة العامة سوى مصلحة الآخرين معه في المجتمع.

إن إيجابية الإسلام في علاقة الفرد بالمجتمع في تحديد الإسلام لوضعية الفرد ووضعية المجتمع معًا: فطالما كان المجتمع في نظره ليس معبودًا فوق الأفراد ـ لأنه الأفراد أنفسهم ـ فللفرد إذن حريته واستقلاله المنبثقان من ذاته كوحدة بذاتها. ولكن صلاتها بالوحدات الأخرى، وهي وحدات الأفراد الآخرين: هي التي تملى عليها رعاية حقوق هؤلاء الآخرين معه في الوجود المشترك والحياة المشتركة. ورسالة الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم وشرحتها السنة الصحيحة لا تخرج عن تحديد هذه الحقوق التي على كل فرد في المجتمع أن يؤديها نحو الآخرين. وإذا أدى كل فرد هذه الحقوق لمن معه، وصلته بالتالي

الحقوق التي له على الآخرين. ولذا أوجب الإسلام على المؤمنين طاعة رسالته[١] فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء:٥٩] [النساء:٥٩]. كما أوجب الاحتكام إليها عند النزاع والاختلاف فقال بعد ذلك: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء:٥٩].

إن أول أمر حرص عليه الإسلام في توجيه إيجابية الفرد: إشعار الفرد نفسه بأن له إيجابية، وبأن له ذاتية خاصة، يجب أن تترتب عليها آثارها، وتلك الآثار هي العمل والمسؤولية من أجل الحياة. ولإشعار الفرد بقيمة العمل، جعل الإسلام العمل في سبيل الحياة والعيش، سعيًا من الإنسان في سبيل الله. فيُروى أنه كَانَ ﷺ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابه رضي الله عنهم ذَات يَوْم فَنظر إِلَى شَاب ذِي جلد وَقُوَّة وَقد بكَّر يسْعَى، فَقَالُوا: وَيْح هَذَا، لَو كَانَ شبابه وَجلده فِي سَبِيل الله؟ فَقَالَ ﷺ: «لَا تَقولُوا هَذَا، فَإِنَّهُ إِن كَانَ يسْعَى عَلَى نَفسه ليكفها عَن الْمَسْأَلَة ويغنيها عَن النَّاس فَهُوَ فِي سَبِيل الله! وَإِن كَانَ يسْعَى عَلَى أبوين ضعيفين أَو ذُرِّيَّة ضِعَاف لِيُغنيَهُمْ ويكفيهم فَهُوَ فِي سَبِيل الله، وَإِن كَانَ يسْعَى تفاخرا وتكاثرا فَهُوَ فِي سَبِيل الشَّيْطَان»[٢].

فالرسول هنا إذ يعتبر سعي الإنسان في سبيل عيشه وعيش أسرته بأنه سعي في سبيل الله . يوقظ الإنسان لذاتيته، وينبهه إلى أن تصريف الإنسان لإيجابيته في العمل أمر يقدره الإسلام حق قدره. وإذن فسبيل الله ليس في ترك العمل، وإلا لكان الإسلام في توجيهه الإنسان مغفلًا طبيعة الإنسان. إنها

---

(١) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص٢٤٧ ، ٢٤٨.

(٢) تخريج أحاديث الإحياء = المغني عن حمل الأسفار، كتاب آداب الكسب: باب: في فضل الكسب والحث عَلَيْهِ، ١/٥٠٣/ح:٤.

طبيعة إيجابية، وموقف الإسلام منها موقف المُوجِّه، وفي حديث آخر يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، وَسَعْيًا عَلَى أَهْلِهِ، وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[1].

وإذا كان الحديث الأول قد أشعر الإنسان بقيمة العمل، الذي هو نتيجة لإيجابيته، فالحديث الثاني كان توجيهًا لإيجابية الإنسان في عمله: إذ العمل الذي يجب أن تتجه إليه إيجابية الإنسان هو: الحلال منه، وكل عمل لا يؤذي الغير، وكل عمل بَعُد عن مواطن الإيذاء أو شبهة الإيذاء، فهو عمل لله وعمل صالح للإنسان، وكما وجه الإسلام إيجابية الإنسان في العمل إلى النوع الحلال منه، وجهه أيضًا في مجال العمل ودائرته. يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الحجر:٢١].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: البيوع والأقضية، باب: في التجارة والرغبة فيها، ٤/٤٦٧/ح:٢٢١٨٦.

المبحث الثالث

غرس الإسلام الشعور بقيمة المجتمع في نفوس الأفراد

كل فرد مطالب بالعمل، وكل عمل يجب أن يتجنب فيه صاحبه الإيذاء والإضرار بالغير. وأرض الله واسعة ورحبة للتعمير والعمل. ليس المحلة أو القرية، أو البلد هي مواطن العمل المباح وحده، ولا هي المتنفس لإيجابية الإنسان في العمل، بل الأرض جميعها»[١]: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة:١٠] [الجمعة:١٠]. ولذا فإن الإسلام وضع حلولًا جذرية لمشاكل البطالة التي قد تنشأ عن التقوقع في أماكن معينة والقعود عن طلب الرزق، حيث أمر الإسلام بالهجرة في الأرض، الهجرة الشرعية بحثًا عن الرزق الحلال، والأخذ بالأسباب، واليقين في أن اللَّه تعالى تكفل بالأرزاق، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود:٦]، وقال ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[٢].

إن هذه النصوص وغيرها مما ورد في شأن العمل والجِدّ والإخلاص كل ذلك لتوعية الأفراد بأهمية العمل والإنتاج لأنه لا يمكن أن تُبنى المجتمعات أو الأمم إلا من خلال العمل الجاد والبنّاء، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ نماذج عملية لذلك، فحينما انتقل الرسول إلى جوار ربه كانت أعداد كبيرة من صحابته ف

---

(١) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص٢٥١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين، ٢/١٣٩٤/ح:٤١٦٤.

منتشرة في الأرض عملًا بالمنهج الإسلامي في نشر الإسلام وإعمار الأرض وبناء المجتمعات الإسلامية التي تجسد روح الإسلام بشكل صادق وواقعي.

«لقد حث القرآن الكريم على الضرب في الأرض في سبيل هذا التعارف، فالأرض كلها للإنسان يعمرها، والضرب في الأرض يعرف الإنسان بأخيه الإنسان، وفي اللقاء بين الأقطار المتنائية يستروح ريح الأخوة الشاملة، ويجد عملًا ما دامت عنده قوة هذا العمل، ولا يترك نفسه راكدًا في أرض واحدة تذبل فيها قواه، فيكون كالماء الآسن يفسده العطن، أو يبدده الحر والهواء، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، وعدَّ من سعى في الأرض لطلب الرزق مثوبًا على فعله، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٠٠].

ومن هذين النصين يتبين أن القرآن يدعو إلى الهجرة؛ لطلب الرزق الحلال، فإن الأخوة الإنسانية يجب أن تفتح صدرها لعمل العاملين وكدح الكادحين، فإذا ضاقت أرض بمن فيها وجب على القادرين أن يهاجروا إلى أرض أخرى يجدون فيها سعة من الرزق، ومستزادًا لقواهم العاملة يتسع لنشاطهم، والأرض كلها أرض الإنسان، وخيراتها كلها للإنسان، ينال منها كل عامل بمقدار طاقته، والثمرات للناس فرادى وجماعات[١].

«إنه في ظل المنهج الإسلامي لا تطغي روح الفردية على المجتمع، ولا يتغلب حب الذات على حقوق الآخرين من أفراد المجتمع: فإن كانوا عمالًا راعوا حق العمل وحق أصحابه في الربح والإنتاج، وإن كانوا تجارًا راعو حقوق

---

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ محمد أبو زهرة، ص٣٣٩.

المتعاملين معهم فلا يغشونهم، ولا يخدعونهم. وإن كانوا مربين ومصلحين راقبوا الله وحق الوطن في توجيههم للناشئة... وهكذا كل يرعى حقوق غيره إذا ما عمل أو فكر.

كما أن تمكن الشعور بالمجتمع في نفوس الأفراد يكون من نتائجه أن يوقر الصغير الكبير، وأن يعطف الكبير على الصغير، وأن يرعى الغني حقوق الفقراء، والمتفوقون في العلم والجاه من هم أقل منهم في ذلك. ورعاية حق الغير والمظهر الواضح لتمكين الشعور بمعنى الأمة في نفوس أفرادها، وهو بالأحرى مظهر إشراك حق المجتمع والأمة في عمل الأفراد وتفكيرهم.

ولكون شعور الأفراد بحق الأمة والمجتمع سُنّة كونية لنمو الأمة ونجاحها. ركز الإسلام توجيهه وعنايته لتنمية هذا الشعور وتمكينه من نفوس الأفراد: فطلب من المؤمنين أن يكونوا إخوانًا متحابين، وطلب إليهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا: أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى أحد أعضائه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وحثهم في العبادة على أن يتقربوا إلى الله مجتمعين فحبب إليهم صلاة الجماعة في كل يوم، وأوجب عليهم الاجتماع في أهم مناسك الحج كل عام. ولم يدع وسيلة من وسائل تمكين شعور الأفراد بالمجتمع والأمة إلا سلكه وأكد الأخذ به.

كما أيقظ في المجتمع الإنساني وهي البشرية قاطبة الروح المشترك بين أعضائها وهي الروح الإنسانية: فوجه النداء إلى الناس، وأرشدهم إلى أن الفوارق بينهم من كونهم ذكورًا وإناثًا، وكونهم شعوبًا وقبائل، وغير ذلك هي الوسائل لتعارفهم وترابطهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[الحجرات:١٣].

هذا عن تمكن الشعور بمعنى الأمة والمجتمع في نفوس الأفراد. أما عن تمكن الشعور بحقوق الأفراد في المجتمع والأمة في نفس الراعي والحاكم، فمظهر

هذا التمكن العدل بين الأفراد: القوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه، والضعيف قوى حتى يأخذ الحق له. ثم محافظته على الحقوق الخاصة بالأفراد: على حرمة ملكيتهم، وحرمة أسرهم، ثم الإشراف على توجيههم لكسب قوتهم، وإنتاجهم في الحياة[١].

إن الإسلام قصد أن يكون الفرد قويًا، وإلى أن يكون المجتمع قويًا، وجعل قوة الفرد في سيطرة عقله على مطالب بدنه، وقوة المجتمع في سيطرة معنى المجتمع على نفوس الأفراد. وهو إذ يقصد إلى قوة الفرد وقوة المجتمع يهدف أخيرًا إلى خير الفرد وخير المجتمع وإلى أن يعيش الفرد معززًا مكرمًا، وتعيش الأمة عزيزة كريمة على نفسها وعلى غيرها.

إن هدم أية أمة لا يكون إلا عن إضعاف شعور الأفراد بمعنى الأمة والمجتمع، وطريق ذلك تمكين حب المنافع الشخصية في أنفسهم . وغالبًا ما يكون ذلك على حساب مصلحة الأمة أو مصلحة الآخرين.

وبناء أية أمة لا يكون إلا عن طريق تقوية الشعور بالأمة والروح العامة في المجتمع بين الأفراد والمواطنين، وخير طريق لهذا البناء هو ما رسمه الإسلام في عبادة الناس لربهم، وفي معاملات بعضهم لبعض[٢].

إن هذا المنهج الإسلامي القويم في بناء المجتمع يُفسر لنا تلك الحالة التي وصلت إليها المجتمعات الإسلامية، وحالة الغُربة التي يعيشها الإنسان في واقعنا المعاصر وتلاشي كثير من القيم الإسلامية ففي ظل انتشار الأنانية والأثرة حيث غاضت ينابيع الرحمة والمودة بين فئات من الناس، واستشرى الطمع والجشع والحسد والحقد والظلم، وأصبح الناس يعيشون في جُزرٍ منعزلة حتى داخل الأسرة الواحدة وخاصة في ظل ضعف دور الأسرة بعد استفحال

---

(١) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص٢٥٢.٢٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٦.

خطر وسائل التواصل الاجتماعي، وضعف العلاقات الاجتماعية بين الناس وبين الجيران، وضعف الشعور الاجتماعي بالفقراء والمحتاجين والبؤساء كل ذلك إنما يُعزى إلى ابتعاد المسلمين عن المنهج العملي للإسلام في علاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالفرد، مما يؤكد على أهمية استعادة المنهج الإسلامي في بناء الفرد والمجتمع والعمل على ترسيخ الشعور بالمجتمع وبالأمة في نفوس الأفراد، إن مسألة الانتماء إلى الأسرة وإلى المجتمع وإلى الوطن تمثل ثلاث دوائر، لا تنفصل احداهما عن الأخرى ولا تتعارض هذه الدوائر، لأنها متصلة وقوة كل دائرة تؤدى إلى قوة الدوائر الأخرى، ولذا حينما يضعف انتماء الفرد إلى أسرته فإنه يؤثر سلبًا على انتمائه إلى مجتمعه ووطنه، ولذا فإن العمل الآن يتم على إضعاف صلة الفرد بأسرته وبمجتمعه ووطنه وذلك عبر وسائل التواصل الاجتماعي والفضاء الإلكتروني الذي أوجد حواجز نفسية وتربوية واجتماعية وسلوكية في المجتمعات، وجعل شرائح غير قليلة من الشباب تعيش حالة من الغربة في أسرها ومجتمعاتها وأوطانها، بسبب حالات الاستقطاب المستمرة للشباب سواء من خلال العمل على إضعاف القيم في حياتهم واستغلال عواطفهم سلبيًّا.

ولذا فإن عملية تربية الأفراد على الشعور بقيمة المجتمع من العمليات المهمة التي يجب أن تضطلع بها الأسرة والمدرسة والجامعة ووسائل الإعلام وكل الجهات المعنية باستعادة الوعي، وضرورة إعادة بناء المجتمع واستعادة دور الأفراد في دعم وتقدم المجتمعات والأوطان.

المبحث الرابع

النظرة الإسلامية للعلاقات الإنسانية

إن الإسلام ينظر نظرة موضوعية تتسم بالواقعية لعملية بناء المجتمع القوى المتماسك الذي يستشعر أفراده مسؤولياتهم الاجتماعية التي لا تتقاطع مع مسؤولياتهم الشخصية أو استقلالهم على المستوى الشخصي، لأن الشعور الاجتماعي متجذر في نفوس الأفراد وبنفس المنهج في ربط الفرد بالمجتمع، فإن الإسلام له منهج خاص ومتميز في العلاقات الإنسانية التي تربط بين المجتمعات الإسلامية وغيرها من المجتمعات الإنسانية، لأن الإسلام ينظر إلى العالم بأسره على أنه أسرة إنسانية واحدة انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات:١٣] إن الأساس في العلاقات الإنسانية هو التواصل والتعاون، «إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا في مجتمع. إنه ـ بفطرته ـ ينزع إلى أن يعيش مع الآخرين في علاقات إنسانية، يتبادلون المنافع والخبرات الحياتية، ويتعاونون فيما بينهم على كل ما يعود عليهم بالخير. وبذلك تقوم المجتمعات وتسير في طريقها نحو التقدم والارتقاء في كل جانب من جوانب الحياة. ومن شأن ذلك أن يُثري الحياة الإنسانية ويجعل لها معنى.

وصلات الإنسان بغيره لها أبعاد عديدة وتستند إلى أسس عقلية وعملية وأخلاقية. ويمكن تلخيص أهم الأسس التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية في التصور الإسلامي في عدة عناصر تتمثل فيما يلي: وحدة الأصل الإنساني، وشمول الكرامة الإنسانية لكل البشر، والمساواة التامة بين الناس، واحترام الآخرين، والتراحم، والتزام العدل في التعامل مع الآخرين، والتعاون على البِرِّ

والتقوى، وذلك كله في إطار من محبة الآخرين ومحبة الخير لهم في ضوء الحديث الشريف:

«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[١].

وإدراك هذه المعاني النبيلة التي تحكم العلاقات الإنسانية في التصور الإسلامي لن يتحقق بصورة صحيحة إلا إذا تمت المصالحة بين الإنسان ونفسه من ناحية، وبينه وبين الله من ناحية ثانية. فإذا تمت هذه المصالحة انعكس ذلك بصورة إيجابية على علاقاته بالآخرين من أناس وحيوانات وأشياء، وبمعنى آخر: إذا كان الضمير متيقظًا والإيمان عميقًا فإن ثمرة ذلك تكون حسن الصلة بالآخرين؛ لأن الإسلام يطلب من المسلم أن يتوافق مع عالمه الذي يعيش فيه.

والمجتمع السويّ مجتمع يعيش أفراده في توافق وانسجام. وهذا أمر يمكن تحقيقه عن طريق تربية الضمير والتوعية الصحيحة بقيم الدين والأخلاق. وبتضافر الوازع الداخلي مع الوازع الديني يكون بناء الشخصية السوية للفرد بناءً متماسكًا يجعل المجتمع كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا[٢].

وقد حرص الإسلام على تنقية العلاقات الإنسانية من كل الشوائب، فنهى عن سخرية فرد أو جماعة من الآخرين، كما نهى عن جرح شعور الآخرين بأي شكل من الأشكال. وفي أبلغ صورة يعلمنا الرسول احترام شعور الآخرين:

إن المجتمع الإنساني مجتمع متشابك في علاقاته، ويمثل وحدة واحدة تجمع البشر جميعًا في إطار واحد، وهذا يعني أن مصير البشرية كلها مصير واحد مشترك. وقد شبَّهه النبي ﷺ بمصير قوم اجتمعوا في سفينة واحدة، وقد استقر

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١/١٢/ح:١٣.

(٢) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، د. محمود زقزوق، ص٧٠، ٧١.

بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها. وكان الذين في أسفل السفينة يأخذون حاجتهم من الماء بالصعود إلى أعلى السفينة. وقد فكروا في إراحة أنفسهم من الصعود والهبوط، وقرروا إحداث خرق في أسفل السفينة يأخذون منه حاجتهم من الماء. ويحذِّر النبي من مغبَّة ذلك مشيرًا إلى أنه إذا ترك الناس هؤلاء القوم يفعلون ما يريدون غرقوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم ومنعوهم مما أرادوا نجا الجميع من غرق محقَّق.

«مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّـهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[1].

وهذا يعنى أن إنقاذ البشرية من الهلاك يتحقق عن طريق التضامن بين البشر، والتعاون في سبيل دفع الأخطار وجلب المنافع، من أجل خير الجميع وأمنهم واستقرارهم[2].

إن التعاون المطلوب ليس على المستوى المادي فقط، وإنما على جميع المستويات المعنوية التي من شأنها الوصول بالإنسان إلى استكمال شخصيته الإنسانية. وقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بهذا الجانب لأنه يشكِّل الأساس للجوانب المادية الأخرى. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[المائدة:٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ٣/١٣٩/ح:٢٤٩٣.

(٢) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، ص٧٢، ٧٣.

والبِرُّ مفهوم شامل لكل أنواع الخير. وقد فسَّر القرآن الكريم معنى البر بالتفصيل في آية أخرى بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

وهذه الآية توضح لنا أن البِرَّ يشمل كل أنواع الخير التي يتصورها الإنسان، والتي يتسع معناها ليشمل عناصر العقيدة والعمل والأخلاق، وتُبيِّن لنا ـ أيضًا ـ أن مفهوم البِرِّ الذي يعنيه القرآن الكريم ينصبُّ على حقائق الأمور وجوهرها ولا يتعلق بالأشكال والمظهريات. وهذا البِرُّ بهذا المفهوم الشامل يتساوى مع مفهوم التقوى؛ ولذلك نجد ختام الآية يقول:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ومن هنا يمكن القول: إن البِرَّ يشمل كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة ـ سواء كان هذا العمل دينيًّا أو دنيويًّا ـ طالما قصد به الإنسان وجه الله، ونفع الناس، ودفع الأذى عنهم، وذلك يُعَدُّ ـ أيضًا ـ تقوى لله ﷻ. فالتقوى والبر والعمل الصالح تتعانق معانيها، وتتلاحم مراميها، وتنصهر في بوتقة القرب من الله تعالى.

وبالنظر إلى هذا المعنى الشامل للبر وللتقوى كان الأمر القرآني بالتعاون على البر والتقوى لشمول ذلك لكل ما يتصل بصلاح الدين والدنيا للإنسان. وهذا التعاون من شأنه أن يرتقى بالإنسان في الاعتقاد والفكر والأخلاق والسلوك

الإنساني، ومن شأنه كذلك أن يعمل على تطوير الحياة وتقدُّمها وازدهارها على جميع المستويات. فالأساس الروحي إذا كان سليمًا فإنه يشكِّل القاعدة القوية والركيزة الصلبة لكل تقدُّم مادىّ[١].

«إن المجتمع في الإسلام مجتمع معنوي، أي: إن العلاقات الاجتماعية فيه تبنى على الروابط الأدبية من تواد وتراحم، لا على أساس من العلاقات المادية فقط؛ ولا شك أن العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة هي التي يقوم عليها بنيان المجتمعات الإنسانية، وهي الروابط التي تربط آحاد الناس ببعضهم.

ومثل المجتمع المادي، الذي يبنى على الاقتصاد أو على الاجتماع في مكان كمثل الأحجار المتراصة التي يجاور بعضها بعضًا من غير ارتباط وثيق بين أجزائها، وإنه مهما يكن فيه من تنسيق هندسي لا يمكن أن يكون متلاحمًا متصلًا، أما المجتمع المعنوي فإنه يقوم على أساس من العلاقات الروحية الرابطة بين أجزائه، وهو متماسك غير قابل لأن تتداعى لبناته؛ لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع ما دام يغذَّى بالروح وبالدين.

ولذلك كان الأساس في كل نظام وضعه الإسلام بالقرآن أو السنة النبوية . الأساس فيه يقوم على التوجيه الديني، الذي يغذي نفوس الآحاد لتجتمع، ونفوس الجماعات لتأتلف، ونفوس الحكام ليعدلوا في دولتهم، وليعدلوا مع غيرهم، وليعاملوهم بالمثل في دائرة التقوى والفضيلة، وليكونوا في كل تصرفاتهم ملاحظين المعاني الإنسانية مع كل إنسان من غير نظر إلى اختلاف الأجناس والشعوب والقبائل والألوان.

---

(١) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، د. محمود حمدي زقزوق، ص١٢٧، ١٢٨.

وقد عمل الإسلام على إقامة ذلك المجتمع الفاضل في كل الأرض؛ لأنه دين عام يخاطب الإنسانية كلها[١].

إن التعاون ضروري بين الناس جميعًا، وإن النبي ﷺ كان وهو يعمل على إنشاء المدينة الفاضلة التي كانت الصورة المثالية التي كان يحلم بها الفلاسفة أمثال أفلاطون، ولم يجدوها، ولم يستطيعوا هم تحقيقها . إن النبي ﷺ رأى المسلمين من قبائل شتى، وأن العصبية لها بقايا في نفوس بعضهم فألَّف بينهم بعقد شرعي، سُمِّي في التاريخ الإسلامي بـ «الإخاء»؛ فجعل كل رجل أخًا لرجل يشاطره ماله وعيشه من غير أن تزول الملكية، بل هو بمقتضى الأخوة الإسلامية يعطي أخاه طيبة نفسه راضيًا مرضيًّا، فآخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الأنصار بعضهم مع بعض.

ولم يقف التعاون على ما بين المسلمين، بل تجاوزه إلى غير المسلمين؛ فعقد مع اليهود حلفًا أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة، ودفع الأذى، وحماية المدينة من كل اعتداء، ومنع الظلم وردع المجرمين العابثين بالأمن، وأكد النبي ﷺ ذلك بالمواثيق. ويلاحظ أن الميثاق كان نتيجة للرغبة في إقامة الحق المجرد، فهو يشبه ما يسمى في عصرنا بـ «التعايش السلمي»، ولكنه كان أبلغ؛ لأنه لا يكتفى فيه بدفع الشر، بل الاتجاه فيه إلى جلب الخير، ولكن اليهود نقضوا ما أبرموا، وكان ﷺ يعقد المعاهدات مع القبائل العربية؛ لتأليفهم، وليحملهم على التعاون على البر والتقوى بدل العصبية الجاهلية.

وإن الإسلام لا يكتفي بمحو أسباب التفرق والنزاع بين الناس، بل يدعو إلى التسامح العام وإلى الرحمة العامة، وإن التسامح هو الذي يداوي القلوب المكلومة، ويجتذب النفوس النافرة، وأبلغ ما يكون التسامح عقب الحروب، فلا

---

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ/ محمد أبو زهرة، ص٣٧١، المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، ١٩٦٦م.

يقول الإسلام: «ويل للمغلوب»، بل يقول تسامحًا معه ورفقًا، والله ـ تعالى ـ يأمر نبيه في معاملة مخالفيه بالصفح، فيقول سبحانه: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، والنبي ﷺ ضرب أحسن الأمثال في الصفح الجميل مع قريش التي أخرجته، والتى آذته، وهمَّت بقتله، ثم حاربته وقتلت أحبابه وصفوة أصحابه، فقد قال لهم بعد أن انتصر عليهم وقد جمع الملأ منهم[1]: «مَا تَظُنُّوَنَ أَنِّي فَاعلٌ بِكُم؟» قالوا: أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، فقال النبي السمح الكريم: أقول لكم ما قاله أخي يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[2].

([1]) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ/ محمد أبو زهرة، ص٣٤١، ٣٤٢.

([2]) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بنحوه، ٩/١٩٩/ح:١٨٢٧٦.

المبحث الخامس

الإيمان وأثره في بناء المجتمع

استطاع النبي ﷺ أن يبنى مجتمعًا إسلاميًّا في المدينة المنورة كان بمثابة النواة الأساسية لبناء الأمة الإسلامية، فقد تحولت القبائل المتناحرة إلى مجتمع متماسك يرفض العصبية والقبلية وينبذ أي نمط من أنماط الاستعلاء والتفاخر، انصهرت كل التراكمات الجاهلية في بوتقة الإيمان في فترة قياسية وجيزة، وهذا من آثار الإيمان بالله تعالى.

«إن الإيمان يُعدّ أعظم طريق لإقرار السلام الاجتماعي فإن الإيمان عقد قلبي، ومن المسلم به حتى في علم الاجتماع أن الممارسات البشرية والعلاقات الاجتماعية المنبثقة عن الاعتقادات أكبر فاعلية وتأثيرًا وأقدر على الدوام والاستمرار من تلك التي ليست كذلك...» [1].

إن «الأخوة الدينية» بين المسلمين هي أصدق تعبير عن هذه الوحدة المشتركة أو هي هذه الوحدة المشتركة: حيث قررها القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقررها رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ».

قُررت الأخوة الدينية بين المسلمين على أنها شأن طبيعي من شئون المؤمنين يتحقق من تلقاء نفسه بمجرد الإيمان، ويستتبع جميع آثاره من حقوق وواجبات، وليست وصية يوصيهم بها ولا تكليفًا جديدًا يطلب تحقيقه بعد الإيمان.

---

(1) دور الإيمان في تحقيق السلام الاجتماعي، د. علي جمعه، مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . وزارة الأوقاف . سلسلة قضايا إسلامية العدد (١٥٨)، ٢٠٠٨م.

وقد غلبت أخوة الإيمان كلَّ صلة سواها حتى صلة النسب، فنسى المرء بها قبيلته، وخرج على عشيرته، وخاصم الولد اباه، وقاتل الأخ أخاه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]. كما اصطلح بها المتخاصمون، واجتمع عليها المتفرقون، فنُسيت عداوات الجاهلية، وأُهدرت دماؤها وتراتها، وأصبح المرء يجلس آمنًا مطمئنًا في ملإ أو خلوة مع من قتل أباه أو أخاه وهو لا يخشى انتقامه، ولا يتوقع أذاه.

لقد عمل الإسلام على الإصلاح بين المتخاصمين وأمر بالإصلاح ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠] إن العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج أزالها الإسلام وانصهر الجميع في بوتقة الإسلام، وقد تبدّى ذلك في العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، ولقد أصبحت صلة النَّسب عارية عن الفائدة والأثر إذا تجردت عن أخوة الإيمان، فلا يرث غير المسلم المسلم ولو كان أباه أو أخاه.

وربطت هذه الأخوة بين قلوب المسلمين حتى أصبحوا أسرة واحدة كبرى: يفرح المسلم لفرح أخيه، ويحزن لحزنه، ويمد يد المعونة إليه عند الحاجة، ويرشده إذا غوى، ويهديه إذا ضل، ويرحمه إذا ضعف، ويعامله بما يحب أن يعامَل به، ويمحضه النصح إذا استنصحه أو رأي عليه ما ينكره الشرع والدين، ويحفظه في ماله وعرضه غائبًا وحاضرًا، ويسعى في إصلاح ذات البين ورفع ما يقع من الخلاف. إخوة متصافون رحماء بينهم، شعارهم: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ»[١]. «المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[١]. «لاَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإكراه، وفي الباب، ٩/٢٢/ح:٦٩٥١.

يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٢]. ودعاؤهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠].

وقد طُبق مبدأ الأخوة الدينية لأول مرة بمؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار حين قدم المدينة مهاجرًا، وكانت مظهرًا من مظاهر القوة الذاتية لتعاليم الإسلام، واختلاطها بالنفوس والقلوب. أوى الأنصار إخوانهم المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم في كل ما يحتاجون إليه، حتى سجل القرآن هذا الإيثار الكريم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

هذه هي الأخوة الدينية التي عَدَّها الإسلام بين المسلمين، أساسًا من أسس دولتهم ومجتمعهم، وقد امتنَّ الله على نبيه وعلى المؤمنين، فذكَّرهم بنعمة التآلف بعد التقاطع[٣]. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[آل عمران:١٠٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٢، ٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ١٢/٨/ح:٦٠٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤/ح:٢٥٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١٢/١/ح:١٣.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ/ محمود شلتوت، ص٣٥٩.٣٦١.

المبحث السادس

اهتمام الإسلام بتكوين المجتمع القوى

«إن المجتمع هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء الدولة، وحين يكون متينًا قويًا، سيظل بناء الدولة إلى الأبد ثابتًا شامخًا لا تزلزله العواصف، ولا تصيبه القلاقل بالتصدع والانهيار، والأفراد هم اللبنات لهذا الأساس، فمتى كانت هذه اللبنات سليمة، ظل المجتمع إلى الأبد أيضًا متينًا قويًا.

فالعناية بالفرد أولًا، لأنه لبنة في بناء المجتمع، ثم العناية ثانيًا بالمجتمع في مجموعة أفراده، وبذلك تتيسر للشعب الدولة الناهضة النابضة بالحركة وبالحياة.

وللناس في ظل المجتمع مناهج في سلوكهم، وسبل في حياتهم تختلف هذه المناهج وتلك السبل باختلاف الأفراد، تبعًا لاستعدادهم النفسي والخلقي والثقافي، وهي إما تتخبط في الحضيض، وإما تتهادى في القمة، وإما أن تسير وسطًا، ليست في الحضيض، وليست في القمة أيضًا.

والأخلاق هي المقياس، والمضطلعون بتقويم المجتمع، إذا حاولوا أن ينتقلوا بمنهج الحضيض، وبالمنهج الوسط أيضًا إلى القمة، يجب أن يبدأوا بالأخلاق أولًا، لأنها أول الخيط الذي يصل بهم إلى الغاية.

على أن المجتمع في حاجة قبل ذلك، إلى وعي لا يُمالئ ولا يُحابي ولا يجبن ولا يتقهقر، يتعقب المتمردين على المجتمع، ويضيق عليهم السبل حتى يعودوا إلى رشدهم، ويثوبوا إلى صوابهم. وللإسلام فلسفة في إصلاح المجتمع وتقويمه، فهو يسلك في هذا الصدد مسلكًا ذا اتجاهين، الاتجاه الإيجابي، والاتجاه السلبي، فهو يقيم الاتجاه الأول على قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، في إطار فردي وجماعي، والتدخل للإصلاح بين المتنازعين:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[لقمان:١٧].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠].

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ﴾[الحجرات: ٩].

ويقيم الاتجاه الآخر السلبي، على قاعدة المقاطعة، وفي القرآن مثل واضح للثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو في غزوة تبوك، وكان أن أمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، ونفذت المقاطعة الشاملة إلى أن تاب الله عليهم.

لو أن المجتمع قامت فيه هاتان القاعدتان اللتان يرتكز عليها الإصلاح الإيجابي، والإصلاح السلبي، لأمكنه أن يعيش عيشة يسودها الأمن.. وتغمرها الرفاهية والسلام[١].

«إن رباط الإيمان والعقيدة بين الناس هو أقوى الروابط، وهو أقوى وأمتن من تلك الروابط التي يتحدث عنها علماء الاجتماع، كاللغة والجنس والأهداف ونحو ذلك، فهي روابط أساسها المصالح، ولا تلبث أن تزول، ولا يمكن أن توفر للإنسانية الأمن والاستقرار، فإن الأساس الوطيد للحياة الصالحة المثالية إنما يجيء من داخل النفس ـ بعده ـ مثلٌ أعلى وهدف روحي أسمى، والرابطة التي يقوم عليها المجتمع الصالح هي الإيمان والعقيدة والرباط الروحي، وهو الذي تشير إليه الآية الكريمة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣].

---

(١) نظرات في الإسلام، د. محمد عبد اللّه دراز، ص٦٥، ٦٦.

كما أن الإيمان باليوم الآخر عامل قوي في تربية الضمير، وفي معرفة المصير في هذه الحياة الدنيا، وفي محاسبة الإنسان نفسه، وهو خير وقاية من التمادي في الشر والفساد والظلم والعدوان، فإن الإنسان إذا تيقن أنه سيبعث بعد الموت، وأنه سيحاسب على ما قدم من صالحات، وعلى ما اجترح من سيئات، فإن هذا اليقين سيكون قوة رادعة عن الشر ودافعة إلى الكريم من الخلال.

كما أن العمل الصالح أثر لازم للإيمان بالله وبالحساب والجزاء في الآخرة؛ لأن من عرف الله ـ تعالى ـ عرف استحقاقه للحمد وللشكر وللعبادة وللاعتراف بأنه ـ سبحانه ـ مصدر الخير، وأن ما ينال من نعمة فمنه ـ تعالى ـ، وأن ما يعمل الإنسان من خير فلا بد أن يكون له الجزاء عند الله، فالله ـ سبحانه ـ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠] ويقول جل شأنه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

والعمل الصالح والحث عليه مذكور في القرآن الكريم في آيات كثيرة. يقول سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧]، ويقول جل شأنه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠].

ويقول عز من قائل: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[غافر:٤٠].

هذه هي الدعائم الثلاث التي يقوم عليها تكوين الفرد، فإذا اكتملت فقد تمت شخصيته الروحية المنبعثة من اليقين الصادق بخالق الكون ومدبره[١].

«لقد آمن المسلمون الأولون بالقرآن وبكل ما جاء به من مبادئ وأصول، فكان منهم خير أمة أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ورسوله، كما أمنوا حقًّا بأن كتاب الله هو الحريّ وحده بأن يُخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقد دفعهم ذلك إلى أن يثقوا بدينهم ثقةً مطلقةً، وأن يؤمنوا بجنسهم وأمتهم، وأن الله جعلهم أمةً وسطًا بين تفريط المفرطين وغلو الغالين، ليكونوا شهداء على الناس، وليكونوا ميزان الحق والعدالة بين الناس جميعًا، وكان من هذا كله، أن سادوا العالم بأجمعه، وفرضوا حضارتهم بكل مقوماتها عليه. فكانوا القادة وكان الناس لهم تبعًا، وكان هذا الوضع مصداق ما جاء عنهم وعن دينهم في كتاب الله المحكم.

أما حين فقدوا هذه الثقة بدينهم، والإيمان الحق بكتابهم وحضارتهم ومبلغ ما أوتوا من حظ من العقل والتفكير والمعرفة، فقد صاروا أناسًا مثل سائر الناس، بل صاروا دون كثير من الأمم التي يتكون منها العالم اليوم»[٢].

إن الإيمان بالله تعالى له آثار عظيمة في تكوين شخصية الفرد والمجتمع، ومن ثم فإن الجميع بحاجة إلى استشعار المعاني الإيمانية في حياتهم حتى يتمكنوا من القيام بأدوارهم في الحياة فالشباب في حاجة إلى تكون الضمير الديني وإيقاظه في نفسه حتى يقوي على دفع الأخطار التي تواجهه في حياته،

---

(١) الحياة المثالية للفرد والأمة كما أوضح الإسلام معالمها، عبد الحميد حسن، المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية، ص٤٤٧ . ٤٥٠، ١٩٧٠م.

(٢) الإسلام والحياة، د. محمد يوسف موسى، ص٥٣.

خاصة في ظل حالات الاستقطاب السلبي عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وهي أخطار تحيط بالشباب وتؤثر على عقول فئات غير قليلة منه.

وكما أن العامل في حاجة إلى تكوين الضمير الديني وإيقاظه في نفسه حتى يساهم مساهمة إيجابية في إنتاجه سواء في مقدار هذا الإنتاج أو نوعه. وليس هناك وراء الضمير الديني في حياة العامل ما يعينه على إتقان العمل، وأداء الواجب دون رقابة عليه من غيره، أكثر من هذا الضمير. قد تكون للدربة أثر، وقد يكون للوعي القومي أثر، ولكن هذا الضمير عامل مهم يعين على اتقان العمل وأداء الواجبات، وعدم المطالبة بأكثر من الحقوق المقررة.

إن حارس الوطن لكي لا يتهيب أخطار الدفاع عن الوطن وردّ الاعتداء عليه في حاجة إلى أن يكون عند هذا الضمير الديني، فهو عدته الروحية بجانب عتاده المادي.

إن الجهاز الحكومي لا يثمر ثمرته الإيجابية إلا إذا كان القائمون به من الموظفين يخشون الله في أعمالهم، ويؤملون في جزائه الأخروى على ما تحملوا من صعاب أو لاقوا من مشقة في سبيل مواطنيهم وأمتهم.

لا تستطيع المعرفة ولا الثقافة ولا تستطيع المدرسة ولا تجارب الحياة وحدها: أن تزود الإنسان بقوة تكفل له النجاح في حياته، وحياة مجتمعه مثل ما تكفل له هذه القوة الضمير الديني الذي أساسه الإيمان بالله والخشية منه، إنه هو الذي يحول علاقة الناس بعضهم ببعض إلى محبة خالصة لا تقوم على أرحام بينهم ولا على أموال يتعاطونها، وأنه هو الذي يجنبهم الخوف إذا خاف الناس، والحزن إذا حزن الناس. وذلك ما لم تصل إليه ثقافة ولا توجيه إنساني بعد[1].

([1]) الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ص٢١١ ـ ٢١٣.

«إن عقيدة الإسلام ملأت قلوب العرب وجعلتهم لا يطلبون إلا رضوان الله وحده، فهانت عليهم الدنيا، وحببت إليهم التضحية في سبيل ما اعتقدوه حقًّا.

يروي الإمام مسلم في صحيحه: أن الرسول ﷺ قال يوم «بدر»: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[1].

وهذه امرأة من الأنصار، رُزئت بأعظم ما يصاب به إنسان يوم «أُحُد»، فقد قتل أبوها وأخوها بعد زوجها مع الرسول، ولكنها لم يذهلها هذا الرزء الفادح، فقد كان همها أن تسأل: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قال: كل مصيبة بعدك جلل! أي: كل مصيبة بعدت عنك صغيرة[2].

ولا تكمل هذه العقيدة لإنسان إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وولده والناس جميعًا، وإلا إذا أسلم وجهه لله وهو محسن، فهو يؤثر طاعته في كل حال، وإلا إذا كان يعمل ما توحيه هذه العقيدة إليه وتأمره به.

ولكن، هذا الإيمان الكامل بالله، وهذه العقيدة النقية القوية بالإسلام الذي رضيه الله دينًا لنا.. هذه العقيدة الخالصة التي بها فتح المسلمون بلاد كسرى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد، ٣/١٥٠٩/ح:١٩٠١.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام، غزوة أحد، باب: شأن المرأة الدينارية، ٢/٩٩.

وقيصر، والتي حملها المسلمون إلى مشارق الأرض ومغاربها، ماذا صار إليه كل هذا؟ وماذا صار إليه المسلمون بعدها؟

إن الأمر ليس أمر الدين فقط، بل أمر الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، فإن الانحراف عن العقيدة الحقة التي كانت السبب الأول لمجد المسلمين وعظمتهم، هو العلة الأولى للأدواء التي نشكو منها هذه الأيام[١].

---

(١) الإسلام والحياة، د. محمد يوسف موسى، ص٥١ ـ ٥٢.

المبحث السابع

تعميق الإسلام لشعور الأخوة بين أفراد المجتمع

«لقد كانت عناية الإسلام بالحرية الاجتماعية هي الأساس الذي أقام عليه جو الحياة الإنسانية الكريمة من أخوة ومساواة، وبعد أن توفرت هذه الحرية الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، جاءت التعاليم الأخرى التي نظمت المجتمع، والتي أصبحت دستور الحياة الإسلامية، منذ ذلك الوقت، وامتن الله جل شأنه بإتمامها على المسلمين في قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

لقد جاء الإسلام فوجد تفاوتًا في المجتمع العربي حال دون أن تكون هناك أخوة ومساواة بين أفراده. جاء فوجد الإنسان يباع ويشترى، ويمتهن في كرامته الإنسانية بالبيع والشراء بالمساومة فيما يدفع من ثمنه، وكونُ الإنسان يصبح سلعة تباع وتشترى، من شأنه أن يحول دون قيام روابط الأخوة والمساواة بين الأفراد، وهنا كان الرق مشكلة اجتماعية، وكان الرقيق مشكلة إنسانية، الأولى تعمل على توتر العلاقات في المجتمع، والثانية توحي بإهدار الكرامة الإنسانية، وتوحي كذلك بالنذر التي تهيئ النفوس خصبة للحقد والثأر والانتقام.

جاء الإسلام فوجد أن هناك (أشرافًا بالوراثة)، وأن هناك سيادة لجاه المال والشرف، وأن هذا وذاك من شأنه أن يحول دون أن يشعر أفراد المجتمع بمساواة في أخوة بعضهم لبعض، وبمساواة في إنسانية بعضهم تجاه بعض، ولذلك لم يكن من المستطاع أن توجد حرية اجتماعية قبل أن يعيد الإسلام النظر في مشكلة الرق والرقيق، وأن يعيد النظر أيضًا في تقويم المال والجاه والشرف.

فأعاد النظر في (مشكلة الرق) وابتداء يوجه المسلمين إلى ما يجب عليهم نحو التخلص من الرقيق بعتقه، كي تعود إليه حريته الإنسانية فيصبح اليوم مساويًا للذي كان يملكه بالأمس، ثم يصبح له غدًا أخًا في الهدف المشترك، وطريق السعي نحو هذا الهدف. وكانت الصور التي حبب بها الإسلام إلى المسلمين عتق الرقيق صورًا عديدة، مرة بطلب العتق كفارة لذنب يرتكب، ومرة أخرى يطلبه كإحسان يبذل. يقول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[المجادلة:٣].

ويقول الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[البلد:١١-١٣].

أما إعادة (تقويم جاه الشرف والمال)، فرأي الإسلام في جانب الشرف، أن الشرف ليس في ذاته أمرًا يقتضي أن يفضُل به إنسانٌ إنسانًا آخر، لأنه أمر عرضي لا يتعلق بذات الإنسان، وتهذيب الإنسان في معاملته للإنسان. ومن صور هذا التهذيب إيثار الآخرين مع ما قد تكون هناك من حاجة إلى ذلك الذي يؤثر به الغير، وصفاء الإنسانية في الإنسان هو الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالتقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣].

والذي يعبر عنه حديث الرسول ﷺ في قوله «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»[1].

([1]) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/٤٧٤/ح:٢٣٤٨٩.

وأعلن الإسلام الحرب على جاه الشرف كمقوم في التفاضل بين الناس، وقت أن أعلن الحرب على العصبية القبلية، وعلى الشعوبية بمعناها الواسع.

وكان من أهم الأمارات التي يتميز بها الإسلام أنه لا يفرق بين إنسان وآخر تبعًا للونه، أو تبعًا لجنسه، أو تبعًا لقبيلته. والآية التي تقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣].

تعتبر ذلك الشعار المميز للإسلام في هذا الجانب.

وفي جانب المال، رأي الإسلام أن المال أيضًا لا يدخل في تقويم الإنسان، وأنه كذلك أمر عرضي بالنسبة للإنسان. لا يفضل بالمال إنسانٌ إنسانًا آخر، ولا ينحط إنسان بفقر اليد عن إنسان آخر، ولذا . كي يرفع المال عن مجال التفاضل . جعل المال من مال الله، وأن على الذي أعطى المال إذن ألا يحبسه عن صاحب الحاجة، كما لا يجعله وسيلة لاستغلال صاحب الحاجة، أو للسيادة والتفوق على غيره[١].

حتى أن النبي ﷺ أراد أن يصحح المقاييس التي يحتكم إليها الناس في النظر إلى بعضهم فحينما كان يجلس مع أصحابه ﷺ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟» فَقُلْتُ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ، فَقَالَ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟» ، فَقُلْتُ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، وَإِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَهَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ

---

(١) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ص٣٠ . ٣٣.

هَذَا»[١]، فصحح لهم النبي ﷺ تلك النظرة التي كان المجتمع ينظر بها وتحتكم إلى معايير لا تتفق مع النظرة الإسلامية.

إن النبي ﷺ عمل على تربية أصحابه على الشعور الاجتماعي والإحساس بمعاناة إخوانهم في المجتمع، ففي الحديث الذي رواه الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[النساء:١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾[الحشر: ١٨] «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ . حَتَّى قَالَ . وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء، ٢/١٣٧٩/ح:٤١٢٠، والطبراني في المعجم الكبير، ٦/١٦٩/ح:٥٨٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، ٢/٧٠٤/ح:١٠١٧.

إن النبي ﷺ دعا أصحابه لمساعدة هؤلاء لتخفيف محنتهم ومعاناتهم ليُعمق في نفوسهم الشعور بالإنسان، حتى أن النبي لما رأي فاقتهم وهيئاتهم تغير وجه تأثرًا عليهم، وحينما سارع أفراد المجتمع من الصحابة ڤ تهلل وجه النبي ﷺ سرورًا بما حدث، وحمد هذا الصنيع وتلك المبادرات الخيرية ليعلمنا دروسًا مهمة أن المجتمعات الإنسانية لا تبنى ولا يرتفع بناؤها إلا حينما يترسخ الشعور الأخوي والاجتماعي والإنساني بين أفراد المجتمع. وهذا ما نحتاجه في واقعنا المعاصر نحتاج إلى تدين سلوكي وترجمة حية لمنهج الإسلام بعيدًا عن التدين الشكلي.

المبحث الثامن

من دعائم بناء المجتمع القوي

الكرامة الإنسانية:

لا شك أن تكريم الإسلام للإنسان ومسألة لا تقبل المساومة، لأن الإسلام يدرك أهمية ومكانة الكرامة الإنسانية التي تشعر الإنسان بقيمته وكرامته الإنسانية ولذا لم يربط الإسلام الكرامة الإنسانية بالدين أو بالمذهب أو بالمال، أو بالجاه فالإنسان في نظر الإسلام لا يُكرّم لهذه الاعتبارات ولا لغيرها، وإنما يكرم الإنسان في الإسلام لإنسانيته فقط.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٧٠].

والكرامة المقصودة هنا عامة لكل البشر رجالًا ونساءً بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم. والإنسان الذي منحه الله الكرامة لا يجوز له أن يفرِّط فيها بأي شكل من الأشكال. ومن جانب آخر لا ينبغى لأحد أن يتعرض بالإهانة لإنسان آخر كرَّمه الله، لأن ذلك يُعَدُّ عدوانًا في حق الله من ناحية، وفي حق الشخص الذي وقعت عليه الإهانة من ناحية أخرى.

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان دون غيره من الكائنات ذات أبعاد مختلفة، فهي حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوى أيضًا على حقه في الأمن على نفسه وماله وذريته. ومن أجل ضمان الحماية الإلهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية وهي: حفظ النفس، وحفظ الدِّين، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ

النسل[١]. فهذه المقاصد الخمسة تهدف كلها إلى حماية الإنسان الذي كرَّمه الله ﷻ، وتمثل القواعد الأساسية لحقوق الإنسان.

فالنفس الإنسانية لا يجوز الاعتداء عليها بأي حال من الأحوال. وقد جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشرية بمثابة اعتداء على البشرية كلها، وفي المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد من أفراد البشرية بمثابة تقديم الخير للإنسانية كلها[٢]. ويعبِّر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾[المائدة:٣٢].

«إنه لا يصح أن يحقر إنسان للونه ولا لإقليمه، ولا لأنه غير متحضر، بل إنه لا يحقر الإنسان أخاه الإنسان أبدًا، وإن التفاوت بين الناس إنما هو بالفضيلة وعدم الاعتداء وبالعمل الصالح، ولقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[٣]، ويقول ﷺ: «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[٤]، وسمع النبي ﷺ رجلًا يقول لآخر: يا ابن السوداء، معيرًا له

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ٢/١٠، دار المعرفة، بيروت.

(٢) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، د. محمود حمدي زقزوق، ص٢٥، ٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ٤/١٩٨٧/ح:٢٥٦٤.

(٤) هذا الحديث مركب من جزءين، الجزء الأول منه أخرجه الترمذي في جامعه، بلفظ: «النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»، وقال: حديث حسن صحيح، ٦/٢٢٩/ح:٣٩٥٦.
والجزء الثاني أخرجه أحمد في مسنده، بلفظ: «أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»، ٣٨/٤٧٤/ح:٢٣٤٨٩.

بسواده، فغضب ﷺ وقال: «لقد طف الكيل، لقد طف الكيل، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى»[١].

ولقد جعل القرآن الكريم اختلاف الناس شعوبًا وقبائل؛ للتعارف والتعاون لا للتباغض والتنازع؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات: ١٣].

فاختلاف الشعوب له غاية جليلة أرادها الله ﷻ وهي التعارف، وهذا التعارف له ظواهر: الأولى: اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام، لا في حرب وخصام، والثانية: التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض، بحيث ينتفع أهل كل إقليم بما هو في الإقليم الآخر من خير، ويمده بما عنده من فائض في مقابل أن ينتفع هو بما عنده[٢].

إن شعور أفراد المجتمع بكرامتهم وإنسانيتهم ومكانتهم في المجتمع يُعد منأقوى دعائم بناء المجتمع المتماسك القوى الذي يحترم إنسانية الإنسان، التي عمل الإسلام على ترسيخ الشعور بها في نفوس الأفراد حتى يستل أي ضغينة أو حقد في نفوسهم نتيجة أي نوع من أنواع الاستعلاء في المجتمع.

العدل وأثره تقوية المجتمع:

العدل أساس قوى في حماية المجتمع من الاهتزاز أو الضعف، والعدل من دعائم تقوية الانتماء في نفوس الأفراد وهو عامل مهم جدًّا من عوامل الاستقرار في الحياة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، بلفظ: «انْظُرْ، فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى»، ٣٥/٣٢١/ح:٢١٤٠٧.

(٢) المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام ـ الشيخ/ محمد أبو زهرة، ص٣٧٧.

إن أهم دعائم السعادة التي يسعى إليها البشر أن يطمئن الناس على حقوقهم، وأن يستقر العدل فيما بينهم. وإنَّا لا نكاد نعرف شيئًا أبعث للشقاء والفتن وأنفى للهدوء والاطمئنان بين الأفراد والجماعات، من سلب الحقوق، واغتيال الأقوياء حقوق الضعفاء، وتسلُّط الجبارين على الآمنين المسالمين. وليس من ريب في أن هذه الظواهر ـ التي ينحرف بها أهلها عن سنن اللَّه ونظامه في كونه ـ أشد ما يقطع الصلات، ويغرس الأحقاد، ويثير أعاصير الكيد والانتقام، ويهدد المجتمع بالأخطار التي تحمِّل الناس ما لا طاقة لهم باحتماله، من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد.

مكانة العدل في القرآن:

وقد كان في أول ما قرره الإسلام حفظًا لكيان المجتمع البشري، مبدأ العدل بين الناس، عنى به القرآن الكريم في مكيه ومدنيه، وحذر مقابله وهو الظلم في مكيه ومدنيه. أمر به عامًّا وخاصًّا: أمر به عامًّا، حتى مع الأعداء، الذين يحملون لنا ونحمل لهم من الشنآن والبغض ما تنوء بحمله القلوب: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[المائدة:٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل:٩٠]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾[الأنعام:١٥٢].

ومن هنا، جعل اللَّه العدل واسطة حبات العقد، الذي كوَّن به لرسوله منهج الدعوة الإصلاحية، التي حمَّلها إياه؛ إنقاذًا للبشرية من ظلمات الجهل والبغي والعدوان: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ

لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[الشورى:١٥].

أمر القرآن الكريم بالعدل هكذا أمرًا عامًّا، دون تخصيص بنوع دون نوع، ولا بطائفة دون طائفة؛ لأن العدل نظام اللَّه وشرعه، والناس عباده وخلقه، يستوون . أبيضهم وأسودهم، ذكرهم وأنثاهم، مسلمهم وغير مسلمهم . أمام عدله وحكمه: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾[النساء:١٢٣، ١٢٤].

وضع اللَّه العدل هكذا، وجعل إقراره بين الناس، هو الهدف من بعث الرسل وإنزال الشرائع والأحكام: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد:٢٥]. ولقد نرى في ذكر الحديد هنا، إيحاء قويًّا واضحًا، إلى أن إقرار العدل فيما بين الناس، واجب إلهي محتَّم، للقائمين به أن يستعينوا عليه باستعمال القوة التي سُخِّر لها ولآلاتها الحديد، ذو البأس الشديد[١].

«إن المودة هي الرابطة التي تربط بين بني الإنسان بحكم الإسلام وسائر الأديان، وإن الرحمة تنبعث منها وهي تلازمها، لذلك كانت الرحمة قانونًا إسلاميًّا واجب الاتباع.. وليست الرحمة التي يطلبها الإسلام هي تلك الشفقة

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ/ محمود شلتوت، ص٣٦٨، ٣٦٩.

الشخصية فقط، بل إن رحمة الإسلام تشمل ذلك، وتشمل الرحمة بالعامة، وهي مقصد الإسلام الأعلى وهي توجب إقامة العدل، ولذلك نرى أن العدل في أدق معناه هو من الرحمة»(١).

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع، الشيخ/ محمد أبو زهرة، ص٤١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.

المساواة في الإسلام

المساواة من دعائم بناء المجتمع القوى المتماسك الذي عمل الإسلام على بنائه وترسيخ قواعده، إن الإسلام انطلق في تعميقه لشعور الأخوة بين أفراد المجتمع من منطلق عظيم له مكانة في نفس كل إنسان، هذا المنطلق هو: المساواة التي تُشعر الفرد بقيمته وبذاته ولا تؤدى إلى اضماره الحقد في صدره ضد المجتمع وأفراده نتيجة طبعية معينة أو عصبية أو عنصرية بغيضة، ولذا فإن الإسلام أمر بالمساواة بين الناس وأكد عليها النبي ﷺ في خطبة الوداع، وحذر من تفضيل بعض الناس على بعض نتيجة عصبية أو غير ذلك فقال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1] ولذا فإن من أهم مظاهر المساواة ثلاثة أنواع: أحدها المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة، وثانيها المساواة أمام القانون وفي الحقوق العامة السياسية وغيرها، وثالثها المساواة في شئون الاقتصاد... الخ صور المساواة التي قد يتعذر استقصاؤها في هذا الصدد.

١. المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة:

يقرر الإسلام أن الناس سواسية في هذه الناحية كأسنان المشط، وأنه لا تفاضل بينهم في هذا الصدد إلا على أساس كفاياتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه والمجتمع الإنساني. فقضى الإسلام بذلك على نظام الطوائف، وأساليب التفرقة بين الطبقات، وقواعد المفاضلة بين الناس تبعًا لاختلاف شعوبهم أو تفاوتهم في الأحساب والأنساب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، ٤/١٧٥/ح:٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ٣/١٣١٥/ح:١٦٨٨.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣]. ويقول عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع التي جعلها دستورًا للمسلمين من بعده وجمع فيها أسس الدين الإسلامي: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ» ـ قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لَا ـ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[١].

إن الإسلام يقرر المساواة بين البشر جميعًا، ولا يرى في اختلافهم أساسًا للتفاضل بينهم، وإنما اختلافهم مدعاة للإلتقاء والتعارف فيما بينهم»[٢].

٢. المساواة أمام القانون وفي الحقوق العامة:

ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذا النوع من المساواة عن موقفه حيال النوع السابق. فقد قرر الإسلام أن يعامل الناس جميعًا على قدم المساواة أمام القانون وفي الحقوق العامة بدون تفرقة بين صعلوك وأمير، ولا بين شريف ووضيع. وفي هذا يقول عمر ﷺ في أول خطبة خطبها بعد توليه الخلافة:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، كتاب: أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، ٣٨/٤٨٤/ح:٢٣٤٨٩.

(٢) طبقية المجتمع الأوروبي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر ـ د. محمد البهي ـ ط١ ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة، ١٩٧٧م.

«اعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى، وأن أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ، وَإِنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَإِنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ»[١]. ويقول في رسالته في القضاء التي كتبها إلى أبي موسى الأشعري، وهي التي جمع فيها معظم أحكام الإسلام في القضاء: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ، وَفِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ»[٢]. ويقول في وصيته للخليفة من بعده: «اجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله»[٣].

ولم يكن الأمر مقصورًا على وضع قواعد وتقرير مبادئ، بل إن التاريخ لينبئنا أن هذه القواعد والمبادئ كانت منفذة بحذافيرها أدق تنفيذ في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، أي في اثناء المرحلة الذهبية التي تمثل مبادئ الإسلام أصدق تمثيل. فقد جاء مرة أسامة بن زيد ـ وكان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ـ إلى النبي ﷺ يشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية، وكان قد وجب عليها حد السرقة لسرقتها قطيفة وحليا، فأنكر الرسول ﷺ شفاعة أسامة على حبه له، وانتهره قائلًا: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا

---

(١) أورده الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، ٤/١١٢/ح:١٢٩٠.

(٢) أورده الدارقطني في سننه، كتاب: في الأقضية والأحكام وغير ذلك، باب: كتاب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري، ٥/٣٦٧/ح:٤٤٧١.

(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، باب في الخطب، وصية عمر ﷺ للخليفة من بعده، ٢/٣٢.

سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[١]. وشكا يهودي عليًّا إلى عمر بن الخطاب في خلافه عمر، فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودي باسمه بينما خاطب عليًّا بكنيته فقال له: يا أبا الحسن حسب عادته في خطابه معه. فظهرت آثار الغضب على وجه علي. فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًّا وأن تمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة. فقال علي: لا ولكنني غضبت لأنك لم تسوّ بيني وبينه، بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتني بكنيتي (والخطاب الكنية كان أسلوبًا من أساليب التعظيم للمخاطب)[٢].

ويسوى الإسلام في تطبيق هذا المبدأ بين المسلمين وغير المسلمين، فيقرر أن الذميين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين، لهم ما للمسلمين من حقوق عامة وعليهم ما على المسلمين «لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ»[٣]، وتطبق عليهم القوانين القضائية التي تطبق على المسلمين إلا ما تعلق منها بشئون الدين فتحترم فيه عقائدهم وشعائرهم.

٣. المساواة في الاقتصاد:

«حرص الإسلام على تقرير المساواة بين الناس شؤون الاقتصاد، وذلك بالعمل على تحقيق تكافؤ الفرص بينهم في هذه الشؤون، وعلى تقليل الفروق بين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، ٤/١٧٥/ح:٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ٣/١٣١٥/ح:١٦٨٨.

(٢) معالم الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة، ص٢٥ - ٢٧، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

(٣) أورده النسائي في السنن الكبرى، كتاب: السير، باب: إنزالهم على حكم الله، وإعطاؤهم ذمة الله، ٧/٧٦/ح:٣٩٦٨.

الطبقات فشرع طرق الكسب الحلال، ونهى عن الكسب الحرام، وحرم الإسلام الاحتكار والاستغلال...»[١].

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، د. علي عبد الواحد وافي، ص٧ .١١.

المبحث التاسع

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأثره في الحفاظ على المجتمع

تضافرت نصوص القرآن والسنة على عموم وجوب تغيير المنكر وإزالة الفساد بقدر ما يستطاع، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة:٧١]، وقال: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران:١١٠].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[هود:١١٧]، وفي مقدمة الإصلاح إزالة الفساد.

وأما الأحاديث النبوية فلا تقل كثرة وتعميمًا عن الآيات القرآنية، ومن أشهرها قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»(١).

إن قيام المجتمع الإنساني يتطلب إذن وعيًا خاصًا بضرورة الاجتماع، كما يتطلب ترابطًا على أساس من تحقيق الهدف المشترك الذي يجب أن يسعى إليه جميع الأفراد المترابطين، فلا يكفي في استمرار قيام المجتمع أن يتعاهد جملةٌ من الأفراد في موطن ما . أو في ظروف معينة متشابهة . ما لم يترابطوا فيما بينهم لتحقيق هدف واحد مشترك نظرًا لرباط الموطن أو رباط الظروف

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ١/٦٩/ح:٤٩.

المتشابهة، بل لا بد من أن يتعاون بعضهم مع بعض تعاونًا عمليًّا يعبر عن هذا الترابط الذي قام بينهم.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معنى عظيم ألا وهو: إهداء الخير للغير، وقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية تبيّن فضله وعظمته عند الله تعالى، ومن ذلك:

أولًا: الأدلة على فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم:

١- قول الله تعالى:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]

٢- وقوله الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران:١١٠]

٣- وقول الله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ﴾

[آل عمران:١١٣، ١١٤]

٤- وقول الله تعالى:﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤]

٥- وقول الله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ

وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف:١٥٧].

٦- وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٥].

٧- وقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة:٧١]

٨- وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١]

٩- وقول الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧]

ثانياً: الأدلة على فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السنة النبويَّة:

عن أبي ذر ﷺ أنّ ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ:

يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضل أموالهم. قال: « أو ليس قد جعل الله لكم ما

تصدقون؟ إنّ بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٍ بالمعروف صدقة، ونهيٍ عن منكرٍ صدقة»[١].

وعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة. فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدةصدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزيء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[٢].

قال الإمام الغزالي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين»[٣].

وقال ابن تيمية: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله، وهو من الدين»[٤].

وقال القرطبي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبيبن في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلاقة النبوة»[٥].

قال ابن حزم: اتفقت الأمة كلّها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منها[١].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٢/٦٩٧رقم١٠٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب : استجباب صلاة الضحي وأن أقلها ركعتان ١/٤٩٨-٤٩٩رقم٧٢٠.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- الغزالي، تحقيق: سيد إبراهيم٥.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد٩ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن- القرطبي٤/٤٧.

. حقيقة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأركانه ومجالاته، د/حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، ص٣٤، ٣٥، ط١ . الرياض . دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م.

كما اعتبره الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ شرطًا رئيسًا في الانتماء إلى صفوف هذه الأمة، فقد قرأ[٢] قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم قال: «يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها»[٣].

وقال أبو بكر الجصّاص: أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه الكريم، وبيّنه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار رحمهم الله على وجوبه[٤].

وقال الغزالي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث له النبيين أجمعين[٥].

وقال النووي: قد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي من الدين[٦].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل- ابن حزم الظاهري، تحقيق محمد نصر، ود. عبد الرحمن عميرة٥/١٩.

(٢) انظر: حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأركانه ومجالاته، د. حمد بن ناصر العمار، ص٢٣ . ٢٧.

(٣) فتح القدير- الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة ٤٥٣/١.

(٤) أحكام القرآن- الجصاص ٤٨٦/٢.

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – الغزالي، تحقيق: سيد إبراهيم٥.

(٦) شرح النووي على صحيح الإمام مسلم ٢٢/٢

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صَمّام الأمان للمجتمع، ويُعد من البراهين العملية على استشعار أفراد المجتمع للمسؤوليات لأجل المحافظة على سلامة المجتمع مع شرورة مراعاة آداب وشروط ذلك.

المبحث العاشر

التكافل الاجتماعي وأثره في بناء المجتمع

حرص الإسلام على توفير المناخ العام الذي يدعم وحدة المجتمع ويقوى عُراه ويجعله متماسكًا وقويًّا ولا شك أن التكافل الاجتماعي هو المحض الأساسي للمجتمع القوى، والإسلام لا يكتفي بمجرد التوجيهات التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية في شأن التراحم والتعاطف بل يسعى لتوفير الضمانات الأساسية التي تدفع أفراد المجتمع للتكافل فقد ورد الثناء على صنيع الأنصار في كفالة إخوانهم المهاجرين قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩] وقد مدح النبي ﷺ صنيع أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة ڤ حينما تسابقوا في سد حاجات المجتمع في ظروف صعبة مما يؤكد على أهمية التكافل الاجتماعي.

لقد حرص الإسلام على إقامة المجتمع الإسلامي على أسس قوية ومتينة من خلال التعاليم الإسلامية التي تجعل هذا المجتمع كالجسد الواحد المتماسك الذي إن أصابه شيء تداعى له سائر الأعضاء وذلك من خلال تأسيس هذا المجتمع على القيم الإيمانية والأخلاقية التي من خلالها يتراحم ويتعاون ويتعاطف أفراد هذا المجتمع.

إن من أفضل ما يضمن بقاء المجتمع قويًّا أن يكون فيه تكافل اجتماعي يقوم على أسس الإسلام وتعاليمه القويمة.

وإذا قام هذا التكافل على أسس صحيحة ضمنت فيه عندئذ مصلحة الفرد والمجتمع وللفرد كيانه ومميزاته وإبداعه ضمن سيطرة المجتمع، ومصلحته كما

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وكما قال ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[١]، وكما قال ﷺ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[٢].

والتكافل الاجتماعي في الإسلام شامل متكامل، يتناول الأمور الآتية:

(أ) توفير الحريات ومعناها في الإسلام.

١- حق الملكية وتنمية الموارد الاقتصادية.

٢- إيجاد العمل لكل مواطن.

٣- حق الحياة الكريمة.

٤- بناء الأسرة بناء كريمًا.

٥- إيجاد التوازن في المجتمع.

(ب) الأصول النفسية للتكافل، العدل، المساواة، الأخوة، الرحمة، الإحسان، الإيثار، العفو، محاربة الطبقية والعصبية، كفالة الحقوق الإنسانية العامة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ١٢/٨/ح:٦٠٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤/ح:٢٥٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: القرعة في المشكلات، ١٨١/٣/ح:٢٦٨٦.

(جـ) تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإيجاد التقوى عند الفرد والجماعة والرقابة العامة للمجتمع (حراسة الرأي العام).

(د) التشريعات الملزمة التي تحقق معنى التكافل في مجتمع المسلمين كالزكاة، والصدقات، والكفارات... إلخ.

(هـ) تحمل أفراد المجتمع مسؤوليتهم تجاه مجتمعهم جماعات وأفرادًا، في رعايتهم بعضهم لبعض[١].

إن التكافل لا يفرض من المجتمع على الأفراد، وإنما يجب أن يكون شعورًا نفسيًّا داخليًّا لدي هؤلاء الأفراد، يتكون فيهم وينمو مع نموهم ويبقي مع حياتهم، إذ لو فُرض من السلطة القائمة في المجتمع، لا يعدو عندئذ أن يكون تكليفًا من الخارج لم تتهيًا له نفوس الأفراد بعد، وربما لا تتجاوب معه.

لأن التكافل الاجتماعي في حقيقته هو شعور داخلي في نفوس الأفراد، قبل أن تظهر آثاره الإيجابية في تماسك المجتمع وصيانته من الضعف أو التفكك . عني الإسلام بتكوينه مع تكوّن الأفراد، بعنايته بالأفراد أنفسهم في مراحل تطورهم. وذلك بوصاياه المختلفة، وبما وضعه من مبادئ الحرمة والحل في السلوك الإنساني، كي يحمل هؤلاء الأفراد عن طريق اتباعهم لهذه الوصايا والمبادئ على أن يكون تكافلهم وتساندهم منبثقًا من ذواتهم الفردية وحدها.

فكم تبلغ من نفس المؤمن تلك الوصية التي يعبر عنها هذا الحديث الشريف الذي رواه البخاري تعبيرًا قويًا، وهو: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٢]، إنها لا شك تبلغ من نفس المؤمن مبلغًا قويًّا عميقًا، لأن هذا

---

(١) التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبد العزيز الخياط، ص٦٢٣، ٦٢٤، المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية، ١٩٨٨م.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١/١٢/ح:١٣.

الحديث قد ربط إيمان المؤمن بمحبته لأخيه المؤمن على نحو ما يرجو ويطلب لنفسه. وكان الإيمان لا يتحقق وجوده إلا عندما توجد هذه الظاهرة: وهي المحبة على النحو السابق ولم يشأ الرسول ﷺ أن يربط وجود الإيمان بوجود المعاملة الطيبة التي يراها الإنسان من الإنسان بل يربطها بمعنى نفسي داخلي وهو المحبة. لأن المعاملة الطيبة قد يكون سببها الخوف من السلطة في المجتمع أو خشيةً من شخص آخر أو محاولة التأثير عليه لأمر ما، أو غير ذلك من الأسباب التي لا تدفع إليها قوة نفسية هي المحبة والشعور بالأخوة.. وعندئذ تكون هذه المعاملة الطيبة موقوفة بسببها الخاص، وهو سبب لا يتصل بالقيمة الإنسانية الخالصة[١].

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام، في حديث آخر، يجعل أخوة المؤمن للمؤمن حقيقة مقررة، ثم يطلب عدم ظلمه وعدم خذلانه أو تحقيره مع رعاية حرماته في النفس والمال والعرض على نحو ما يعبر في قوله الذي رواه أحمد في مسنده: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا . يُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ» فإنه يريد أن يحمل أفراد المجتمع الإسلامي على ألا يتجاوزوا في نظرتهم إلى الحياة، وفي سلوكهم فيها، وفي سعيهم لتحقيق أهدافهم منها . هذه الحقيقة الثابتة. وأن يتخذوا منها بدء انطلاقهم في الحياة سواء نحو التفكير أو التصرف والمعاملة. فإذا فكر المؤمن فعلى أساس من أخوته للمؤمن، ومن صيانته لحرماته السابقة.

والقرآن الكريم عندما يقول في صورة الإخبار عن أمر لا يصح أن يتطرق إليه الشك:

---

(١) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ٣/٦٨ . ٦٩.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١].

وبذلك يجعل الولاء والإخلاص والصداقة القائمة على الصفاء النفسي ظاهرة لعلاقة المؤمن بالمؤمن. عندما يقول قوله هذا في هذه الصورة، يطلب أيضًا من المؤمنين بالله أن تكون هذه الظاهرة نقطة ارتكاز في علاقة بعضهم ببعض. يصدرون عنها ويمارسون نشاطهم في صلاتهم بعضهم ببعض مبتدئين منها.

وعندما يطلب القرآن أيضًا من المؤمنين أن يسعوا على إصلاح ذات البين، عندما يعرف خلاف بين مختلفين، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات:١٠].

ويعبِّر ـ رغم وقوع الخلاف عن العلاقة بين المختلفين بأنها علاقة بين أخوين ـ عندما يطلب هذا في صورة الأمر البات، يعني ببقاء الشعور النفسي الداخلي بين الأفراد منقى من الشوائب، حتى يكون أثره في تكافل المجتمع ليس أثرًا إيجابيًّا فحسب. بل مع ذلك أثرًا مصحوبًا باطمئنان وبرضاء نفسي، وكذلك أكثر دوامًا وأشد نفاذًا.

الفرد في نظر الإسلام قبل المجتمع، والمجتمع ظاهرةٌ يخلقها الأفراد، وعنايته بالفرد لأنه الموجود الذي يتحرك، ولأنه الذي يمكن أن يوجه في حركته إلى اتجاهات مختلفة. وإذا وجّه ـ منذ بداية طفولته ـ إلى أن يكون عضوًا في مجتمع على صورة معينة أصبح عضوًا في هذا المجتمع، ووجد هذا المجتمع بدوره كذلك.

والإسلام يريد للفرد أن يصبح ذا إنسانية، فإذا نشأ على تقديم المعاني الإنسانية، وممارسة هذه المعاني في سلوكه ومعاملاته، فسيكون هو إنسانًا، ومجتمعه تبعًا له مجتمعًا إنسانيًّا، مجتمعًا يحقق التكافل ولكن ليس بسلطة

القانون والرقابة الخارجية، وإنما بدافع الشعور الإنساني وبدافع ذاتية الفرد وحريته[١].

إن هذا الإحساس الاجتماعي بالتكافل لم ينحصر بين المسلمين، وإنما تعداهم إلى غير المسلمين ممن يعيشون معهم من إخوتهم في الإنسانية، وهذا ما حدا بعمر بن الخطاب ﷺ عندما رأي يهوديًّا دفعته الحاجة وكبر السن إلى سؤال الناس، أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ مَرَّ بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ، فَقَالَ: مَا أَنْصَفْنَاكَ إِنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ، ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ. قَالَ: ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يُصْلِحُهُ[٢].

إيجاد التوازن في المجتمع:

من سمة المجتمع المتكافل في الإسلام أن يكون وسطًا متوازنا ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلا غلو، ولا تقصير، ولا إفراط، ولا تفريط، وإنما اعتدال، وقصد، وقوام، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، والتوازن يشمل العقيدة فينبغي أن تظل صافية ليس فيها انحراف ولا بدع ولا خرافات ولا أوهام: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، ويشمل الأحكام التي لا تغليب فيها لمطالب الأشواق الروحية على مطالب النزعة الإنسانية في التطلع إلى مزيد من شهوات الحياة الدنيا ولا العكس، فالمتعلقة بحياة الإنسان الخاصة يجب فيها الاعتدال في المأكل والمشرب والملبس

---

(١) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ٣/٧٠، ٧١.

(٢) الأموال لابن زنجويه، كتاب: الفيء ووجوهه وسبيله فمنه الجزية والسنة في قبولها وهي من الفيء، باب: اجتباء الجزية والخراج وما يؤمر به من الرفق بأهلها، وينهى عنه من العنف، ١/١٦٩/ح:١٧٩.

والإنفـــاق(١)﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعــراف: ٣١]،﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

والمتعلقة بالعبادات يجب فيها الاعتدال، فلا إغراق في العبادة ولا إهمال قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال ﷺ: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»(٢)، والمتعلقة بالمعاملات؛ إحسان البيع والشراء وإتقان الصنعة والإخلاص في العمل والإحسان في المعاملة، ومنع السفه، وهو سوء التصرف بالمال، وإيجاد الأعمال، ومنع البطالة، وتيسير الكسب الحلال بالطرق الحلال، ومنع الطرق غير المشروعة كالغش والاحتكار والربا، وتوفير الحاجات الأساسية للإنسان.

ويشمل الأحكام المتعلقة بالأخلاق والتمسك بالأخلاق الفاضلة، ونبذ الأخلاق الرديئة، وعدم التظاهر بها، وإدارتها على الإيمان بالله لا على المنفعة؛ لأنها من الشوائب التي لا تتغير، وليبقي المجتمع متكافلًا نظيفًا فلا اعتداء على الأعراض والأموال، ولا غيبة، ولا كذب، ولا وشاية، ولا إشاعة للفاحشة، ولا تضليل، ولا كبرياء، وإنما نظافة وتناصر بالحق وقصد في الكلام وتواضع، والنصوص في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وقوله: ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١].

---

(١) التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبد العزيز الخياط، ص٦٢٩، ٦٣٠.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده، ٦/٣٦٥/ح:٣٦٩٤، عن أنس ﷺ.

ومن التوازن في المجتمع أن تُعطى الفرص لأربابها في العمل، وإبراز المواهب، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ – ٤٠]، وأن ينظر إلى أرباب الكفاءات والاختصاص: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأن يمنع الإسراف والترف وتكدس الثروات من غير استغلال.

لقد حرص الإسلام على أن يقيم مجتمعه المتكافل على أصول نفسية عميقة يغرسها في نفس المسلم، ويغذيها بالعقيدة الصافية، ويتعهدها بالتربية الصالحة، ويعمقها بالعبادة الخالصة، وهذه الأصول هي القيم العليا التي يتجه إليها الإنسان في أعماله[١].

«لقد كانت رسالة الإسلام تخطيطًا للطريق الذي يوصل الإنسان إلى أن يكون ذا إرادة، وذا قوة واستطاعة للمقاومة والمغالبة، وذا مشاركة اجتماعية، كانت رسالة الإسلام لإيقاظ الوعي بالذات والوعي بالمجتمع معًا، إذ إضرار البشرية هي في فقدان إرادة الأفراد، وانعدام المشاركة الاجتماعية بينهم، وقد جاء الإسلام لاتقاء هذه الأضرار البشرية، وتنمية إرادات الأفراد وتأكيد روابط المجتمع بينهم...، وهو بذلك رسالة توجيه ذي شقين: للفرد والمجتمع[٢].

---

(١) التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبد العزيز الخياط، ص٦٣١.

(٢) الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، ١٧/٢، ١٨.

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

في ختام هذا البحث أود أن أؤكد على أن الإسلام كانت لـه نظرة متميزة للفرد، حيث يعتبره النواة الحقيقية للمجتمع وللأمة، وقد عمل الإسلام على بناء الفرد، فبيّن علاقته بخالقه وعلاقته بمجتمعه وعلاقته بهذا الكون الذي سخره له، وقد أكد المنهج الإسلامي على أهمية بناء شخصية الإنسان، وتنمية عقله وحمايته، وحثّه على طلب العلم وإعمال العقل، وبيّن الآثار الروحية للعبادات حتى يستطيع الإنسان القيام بدوره على المستوى الشخصي وعلى المستوي المجتمعي، وقد بيّن الإسلام أن الفرد لم يُخلق لنفسه أو لأسرته، ولكنه مطالب بدور اجتماعي مهم يؤدي إلى تفاعله مع بقية أفراد المجتمع والمواطنين في وطنه، لأن الأوطان لا تتقدم إلى من خلال التعاون والتكافل والتراحم والإنتماء والعمل الجاد وتغليب المصالح العامة على المصالح الشخصية.

ولذا فإن الإسلام غرس في نفوس الأفراد الشعور بقيمة المجتمع والوطن، وهذا لا يتأتي إلا في ظل العلاقات الإنسانية التي أرسى الإسلام معالمها، لتكوين المجتمع القوى الذي تسوده المحبة والمودة والتعاون وروح الأخوة الإيمانية والأخوة الإنسانية.

إن المنهج الإسلامي عمل على بناء الفرد القوي والمجتمع القوي من خلال عملية التوازن واستشعار المسؤولية.

هذا وصلى اللَّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢. الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ/ محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشر، ١٩٨٨م.

٣. الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، ١٩٩٥م.

٤. الإسلام والحياة، د. محمد يوسف موسى، دار العصر الحديث للنشر، ١٩٩١م.

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – محمد الغزالي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

٦. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٧. الأموال لابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني المعروف بابن زنجويه (المتوفى: ٢٥١هـ)، تحقيق: د. شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨. الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، د. محمود حمدي زقزوق، من مطبوعات الأزهر الشريف.

٩. أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، ماجد عرسان الكيلاني، سلسلة إسلامية المعرفة . المعهد العالي للفكر الإسلامي (٢٠)، ١٩٩٧م.

١٠. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١١. تجديد التفكير الديني في الإسلام للدكتور محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، القاهرة ١٩٦٨م.

١٢. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٣. تحريم الخمر والرد على من يدعي أن النص القرآني لا يحرمه، الشيخ: عثمان بن عبد القادر الصافي، المكتب الإسلامي بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

١٤. تخريج أحاديث الإحياء = المغني عن حمل الأسفار، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، الناشر: دار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

١٥. التشريع الجنائي في الإسلام . عبد القادر عودة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.

١٦. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩هـ.

١٧. تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩هـ.

١٨. تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م

١٩. تاريخ التشريع الإسلامي، أ. محمد الخضري بك، المكتبة التجارية، القاهرة، ط٩، ١٩٧٠م،

٢٠. تاريخ التشريع الإسلامي، أحمد إبراهيم بك، دار الأنصار، القاهرة، د.ت.

٢١. التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبد العزيز الخياط، المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية، ١٩٨٨م.

٢٢. تنظيم الإسلام للمجتمع، الشيخ/ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.

٢٣. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

٢٤. جامع الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٢٥. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٢٦. حقوق الإنسان في الإسلام، د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠١٦م.

٢٧. حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، يسري محمد راشد، كتاب الأمة، ٢٠٠٦م.

٢٨. حقيقة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأركانه ومجالاته، د/حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيليا للنشر والتوزيع، السعودية، ط:١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٩. الحياة المثالية للفرد والأمة كما أوضح الإسلام معالمها، عبد الحميد حسن، المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠م.

٣٠. دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د/ محمد دراز، دار القلم، الكويت ١٤٠٠هـ.

٣١. دور الإيمان في تحقيق السلام الاجتماعي، د. علي جمعه، مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . وزارة الأوقاف . سلسلة قضايا إسلامية العدد (١٥٨)، ٢٠٠٨م.

٣٢. الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، إصدارات مجمع البحوث الإسلامية الأزهر الشريف.

٣٣. رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، إحياء العلوم، بيروت ١٩٧٩م.

٣٤. سنن ابن ماجه، ابن ماجة - وماجة اسم أبيه يزيد - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٥. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، مؤسسة

الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٣٦. السنن الكبرى للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

٣٧. السنن الكبرى، للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٨. السيرة النبوية، لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٣٩. الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبد الله التركي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٥م.

٤٠. شرح النووي على صحيح الإمام مسلم، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤١. شعب الإيمان للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي،

الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٣. صحيح وضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ).

٤٤. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤٥. طبقية المجتمع الأوروبي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر . د. محمد البهي . ط١ . مكتبة وهبة . القاهرة، ١٩٧٧م.

٤٦. عناية القرآن بحقوق الإنسان، دراسة موضوعية وفقهية، د. زينب عبد السلام أبو الفضل، دار الحديث، ٢٠٠٩م.

٤٧. الفصل في الملل والأهواء والنحل– أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق محمد نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، مكتبة الخانجي – القاهرة.

٤٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري، محمود بن عمر، ط١، دار الفكر، ١٩٧٧م.

٤٩. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى: ١١٦٢هـ)، مكتبة القدسي، لصاحبها حسام الدين القدسي – القاهرة، ١٣٥١هـ.

٥٠. المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى : ٣٣٣هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر : جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت –

لبنان)، ١٤١٩هـ.

٥١. المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ/ محمد أبو زهرة، المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، ١٩٦٦م.

٥٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٥٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.

٥٤. مدارج السالكين المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، مطبعة السنة المحمدية (١٣٧٥هـ).

٥٥. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم ابن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٥٦. مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: د. محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩ م

٥٧. مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ – ١٩٨٤

٥٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د.عبدالله ابن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٥٩. المسؤولية في الإسلام، محمد زكي الدين حجازي، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٦٠. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار= مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٦١. معالم الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

٦٢. المعجم الكبير للطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ).

٦٣. من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، د. محمد البهي،.

٦٤. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ١٩٩٧م.

٦٥. نظرات في الإسلام، د. محمد عبد اللَّه دراز، ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م.

٦٦. نيل الأوطار للشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.